

النخلة في الشعر الجاهلي

د. أنور أبو سويلم*
جامعة مؤنة

ABSTRACT

This paper investigates the importance of the Palm tree in the Poetry and beliefs of the Pre-Islamic Arabs. It also shows the occurrence of the Palm-tree in their poetry; its relation with the essential elements of the Pre-Islamic life: al-Zaain women, Camels, Horses and War. Furthermore, this paper attempts to interpret the image of the Palm-tree comprehensively in the light of the Pre-Islamic beliefs and ancient Arabian life.

ملخص

يكشف هذا البحث عن أهمية النخلة في حياة العرب ومعتقداتهم وأشعارهم. ويعرض لمواطن ورود النخلة في الشعر الجاهلي، وعلاقة النخلة بموجودات الحياة الجاهلية كالطعائن والنساء والإبل والخيول والحرب، محاولاً تفسير صور النخلة تفسيراً متكاملأ في ضوء المعتقدات الجاهلية والحياة العربية القديمة.

(١) الشجرة في التراث الإنساني

أثارت الأشجار العظيمة خيالات الإنسان القديم، ودخلت في وهمه فأعجب بها، وأعزها وقدها، إماً تخوفاً من ضخامتها، أو نتيجة لنفعها، وما يصحب حياتها من غموض لم يتوصل الإنسان إلى سره، وتركت عزلة الأشجار العظيمة وسكونها وحقيقتها آثاراً عميقة في طبيعة البشر الحساسة؛ فآمنوا بوجود قوى روحية كامنة فيها، معتقدين بآثارها الخطيرة في حياتهم، فاتخذوا مواضعها حرماً يتبركون به، ويتقربون إليها بالقرايين. وتعتقد قبائل «وانيكا» في شرق إفريقيا أن لكل شجرة روحها الخاصة وأن قطع إحدى أشجار جوز الهند يُعادل جريمة قتل الأم؛ لأن الشجرة تنهم الحياة والغذاء مثلما تفعل الأم مع صغارها^(١).

* أستاذ مشارك/قسم اللغة العربية وآدابها/جامعة مؤنة.

(١) سير جيمس فريزر: الغصن الذهبي، ترجمة أحمد أبو زيد وآخرين، الهيئة المصرية العامة بـ مصر ١٩٧١ م، ج ١ ص ٣٩١.

ويعتقد الرهبان السياميون أن كَسْرَ الفروع عن الشجرة من نوع قَطْع ذراع شخصٍ برىء، وَمَنْ قَطَعَ شَجَرَةً سوف يعيش عيلاً بقية حياته^(٢). وكان الإنسان القديم يَعُدُّ الظواهر الطبيعية تجاربَ إنسانيةً، والتجارب الإنسانية ينظر إليها كأنها حوادث كونية^(٣).

وَتَمَتَّعَ الأشجار بالنفوس والحياة يعني أنها تحسّ وتَشعر، وَقَطَعُهَا يُشَبِّه عملية جراحية دقيقة يجب إجراؤها بكثير من الدقة واللطفِ مراعاةً لأحاسيسها وتخفيفاً لآلامها، ويعتقدون أن الأشجار عندما تُحْتَتُّ أغصانها تُصْدِرُ صِيحَاتٍ عاليةً يمكن أن تُسْمَعَ من بعيدٍ وكأنها تَنْدُبُ أحدَ المَوْتَى. ويعترف أحدُ السَّحَرَةِ أنه غالباً ما يَسْمَعُ أنينَ الأشجار ونواحها تحت ضربات الفؤوس^(٤).

وفي الكتابات التاريخية الصينية المُعْتَمِدة إشارات إلى الأشجار التي تدمى أو تنطلق منها صيحات الألم والغيط والسُّخْط أثناء قطعها أو حرقها^(٥).

ويقوم الإنسان القديم بممارسات أسطورية تهدف إلى زيادة إنتاج الأشجار، ففي «سلانجور» يأتي أحد السَّحَرَةِ المحليين بَبَلْطَة صغيرة يضربُ بها في حرصٍ وَحَذَرٍ جذع أكثر الأشجار عُقْماً عدّة ضربات، وهو يقول: إن لم تُحْمَلِ فاكهةً فسوف أقطعك، فتجيبه الشجرة على لسان آخر مُخْتَبِئ خلفها: نَعَمْ، سوف أحمل الثمار هذه السنة وأتوسل إليك ألا تقطعني^(٦).

وهذه الطريقة في التعامل مع الأشجار لها نظائر مشابهة في أوروبا^(٧) وعند العرب^(٨) والاعتقاد بامتلاك الأشجار روحاً مشابهة لروح البشر دفع الإنسان القديم إلى إظهار الاحترام

(٢) فريزر: الغصن الذهبي ج' ١ ص ٣٩١، ٣٩٢.

(٣) هـ. فرانكفورت وآخرين: ما قبل الفلسفة، ترجمة: جبرا إبراهيم، دار مكتبة الحياة، بغداد ١٩٦٠، ص ١٤-١٥.

(٤) فريزر: الغصن الذهبي ج' ١ ص ٣٩٣.

(٥) فريزر: الغصن الذهبي ج' ١ ص ٣٩٤.

(٦) فريزر: الغصن الذهبي ج' ١ ص ٣٩٦.

(٧) فريزر: الغصن الذهبي ج' ١ ص ٣٩٧.

(٨) انظر: ابن وحشية: كتاب النخل، ص ٧٠.

للشجرة، يتصرف الناس معها وقت الإزهار كما يتصرفون مع النساء الحوامل، فلا يعلنون أصواتهم عندها مخافة أن تسقط بذورها، وينظرون إلى حملها كما ينظر الناس إلى أطفالهم في فترة الرضاعة، ويحرصون على عدم جرح الشجرة لأنها تتألم كما يتألم الإنسان المجرّوح^(٩). ويعتقد (تايلر) أن الاعتقاد بأرواح الشجر طغى على الفكر الروحي في شرق آسيا حيث يسود الخوف من قطع الأشجار ويستعينون بطقوس روحية لتجنب غضبها عند قطع أغصانها^(١٠).

وتصوّر الأشجار على أنها كائنات حيّة لها نفوس يؤدّي بالضرورة إلى معاملتها على أنها ذكور وإناث يمكن أن تتزاوج بالمعنى الحقيقي للكلمة، وليس بالمعنى المجازي أو الشعري، فالنباتات تتكاثر عن طريق اتحاد العناصر الذكورية بالأنثوية، وفي كثير من الأشجار يتميز النبات الذكر عن الأنثى، وقد عرف الأقدمون نقل بذور اللقاح من النخلة الذكر إلى أزهار النخلة الأنثى، وكانت عملية الإخصاب تتم في الربيع، ويسمّي أهل «حرّان» الوثنيين الشهر الذي تتم فيه عملية التلقيح باسم «شهر البلح» وفيه كانوا يحتفلون بأعياد زواج الأرباب والربّات^(١١). وهذه الاحتفالات تكاد تعمّ الجزيرة العربية كلها.

ويعتقد الإنسان القديم أن الأشجار تجلّ فيها أرواح الموتى من الأسلاف، ويتقربون منها بالهدايا والقرايين مخافة الأذى، وكانت العادة المتبعة في الصين أن تزرع الأشجار على المقابر لأنّ الأشجار التي تنمو فوق المقابر ترتبط ارتباطاً وثيقاً بأرواح الموتى، ومن ثمّ ساد الاعتقاد أنّ قطع الأشجار «المسكونة» سوف يؤدّي إلى غضب الأرواح بخروجها من مسكنها^(١٢). وكان العرب يعتقدون أن روح «العزى» استقرت في ثلاث سمّرات «بطن نخلة» وكانوا يتقربون إليها بالقرايين والنذور، وعندما بعث الرسول (ﷺ) خالد بن الوليد لاجتثاثها أتاها فإذا بحبيشيّة

(٩) قيس النوري: الأساطير وعلم الأجناس، مؤسسة دار الكتب للطباعة، الموصل ١٩٨١ ص ٥٠.

(١٠) قيس النوري: الأساطير وعلم الأجناس ص ١٩٠.

(١١) فريزر: الفصن الذهبي ج ١ ص ٣٩٨.

(١٢) فريزر: الفصن الذهبي ج ١ ص ٤٠٠ - ٤٠٢ وقد اعتقد المجوس أن الإله جعل روح زردشت في شجرة أنشأها في أعلى علين. ومن سنن عبدة الأصنام من الهنود أن يأتوا شجرة عظيمة فينبون فيها موضعاً، ويضعون الإله الصنم في جوف الشجرة ويكون سجودهم وطوافهم نحو تلك الشجرة. انظر: الشهرستاني، محمد عبد الكريم: كتاب الملل والنحل، حققه عبدالعزيز الوكيل - مؤسسة الحلبي القاهرة ١٩٦٨، ج ٢ ص ٤٢ وج ٣ ص ١٠٥.

نافشة شعرها، واضعة يديها على عاتقيها، تصرف بأنيابها، وخلفها سادنها، فضربها خالد ففلق رأسها ثم قطع الشجرة وقتل السادن^(١٣).

ويستمر حلول روح الشجرة في خشبها؛ لذلك يعتمد الإنسان القديم إلى استرضاء الروح بالقرابين قبل أن يحل ببيته الجديد المصنوع من أخشاب الشجر^(١٤).

وعند السلاف الجنوبيين تعلق المرأة التي تريد الحمل قميصاً جديداً على أغصان شجرة مثمرة، وتأتي في اليوم التالي وتلبس القميص وهي واثقة من أنها سوف تحمل مثلما أثمرت الشجرة التي علقت عليها قميصها أثناء الليل^(١٥). فروح الشجرة لها أثر في حياة أصحابها، ومن هذا يمكن أن نفهم تعقاد الرتم، وهو أن الرجل إذا عزم على سفر يعتمد إلى شجرة فيعقد غصنين منها أو يعقد خيطاً في غصن شجرة أو ساقها، فإذا عاد وجد الخيط على حاله علم أن زوجته حفظت غيبته، وإن لم يجده أو وجدته محلولة، قال: إنها خاتنه، وهذا العقد يسمى الرتم والرئيمة^(١٦).

والنخلة من أقدم أنواع الشجر الذي عرفه الإنسان، وقد عرفت في بابل ونصت على تقديرها شريعة حمورابي التي تعد من أقدم الشرائع البشرية، ومن هذه النصوص:

مَنْ يقطع شجرة نخل يُغرم نصف (مَنْ) مِنْ فِضَّة (١٧) ووحد الفنيقيون بين النخلة التي عدها الساميون عامة «شجرة الحياة» وبين آلهة الإخصاب الجنسي والتعشير «عشتروت» أو «عشتار» فالنخلة كانت شجرة الميلاد أو شجرة العائلة عند شعوب غرب آسيا، وفي مصر وبابل وفينيقيا والجزيرة العربية^(١٨).

(١٣) ابن الكلبي، هشام بن محمد بن السائب (ت ٢٠٤ هـ) الأصنام، تحقيق: أحمد زكي باشا، دار الكتب المصرية ١٩٢٤ م ص ٢٥-٢٦.

(١٤) فريزر: الغصن الذهبي ج ١ ص ٤٠٤.

(١٥) فريزر: الغصن الذهبي ج ١ ص ٤١٢.

(١٦) ابن منظور، لسان العرب، مادة (رتم).

(١٧) محمود الأمين، شريعة حمورابي، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد ١٩٦١، المواد ٥٩، ٦٠، ٦١، ٦٢، ٦٣. ونوري حودي القيسي: الطبيعة في الشعر الجاهلي، دار الإرشاد، بيروت ١٩٧٠ م، ص ٧٠.

(١٨) شوقي عبدالحكيم: مدخل لدراسة الفولكلور والأساطير العربية، دار ابن خلدون بيروت ١٩٧٨ م، ص ٥٩.

والنخلة شجرة «عشترت المقدسة»، فمن «تمرها» تسمت عشترت، ومن اسم ثمرها جاء اسم الإله «دامور» أو «تامور» أو «تامير» أي التمر، ووجدت آثار هذا الإله في جزر البحر الأبيض المتوسط التي استعمرها الفنيقيون، وصكوا على النقود صورة نخلة كثيرة الثمار^(١٩).

واعتقد الفنيقيون بوجود علاقة بين النخيل وبين الموت وتوالي الولادة والحياة، وتذكر الأساطير المصرية والفنيقية أن طائراً يسمى «فينيق» أي النخيل كان يحج إلى بعلبك فيموت بها ثم تعود إليه الحياة من جديد^(٢٠).

وتعد النخلة «شجرة الحياة» عند المصريين القدماء والسومريين والتاويين في الصين، وتعد أيضاً شجرة الإنجاب ورمز الخصوبة^(٢١).

واستعملت النخلة في الزخارف الرمزية التي شاع استعمالها في العراق القديم، خاصة في عصر الإمبراطورية الآشورية، وقد عرفت هذه الزخرفة باسم «شجرة الحياة»^(٢٢).

وجسم العرب الجنوبيون والسومريون الإلهة «الشمس» بصورة نخلة، ويظهر أن تحمل النخلة لحر الشمس ووهجها ومنظر رأسها الذي هو على شكل كرة مكونة من السعف ويشبه خيوط أشعة الشمس، حمل القدماء على تصور صلة لها بالشمس فجعلوها رمزاً لها وعلامة عليها^(٢٣).

وقدس قدماء المصريين النخلة وسموها «شجرة الفردوس»^(٢٤).

وارتبطت النخلة بولادة عدد من الآلهة والأنبياء، ففي الأساطير الإغريقية ولد الإله أبولو ونبتون وذيلىن تحت نخلة^(٢٥).

(١٩) شوقي عبدالحكيم: موسوعة الفولكلور والأساطير العربية، دار العودة، بيروت ١٩٨٢، ص ٦٦٥.

(٢٠) شوقي عبدالحكيم: موسوعة الفولكلور ص ٦٦٦.

(٢١) محمد الجوهري: علم الفولكلور، دار المعارف بمصر ١٩٨٠، ج ٢ ص ٥٤٩.

(٢٢) حسن الباشا: تاريخ الفن في العراق القديم، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٦ م، ص ١١٩. ونوري القيسي: الطبيعة في الشعر الجاهلي، ص ٧٠.

(٢٣) جواد علي: الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٠ م ج ٦ ص ٦٧.

(٢٤) توفيق الفكيكي: شجرة العذراء، ص ٢٩.

(٢٥) حسن الباش وعبد السهلي: المعتقدات الشعبية في التراث العربي، دار الجليل (د.ت) ص ٣٣٦.

ومريم البتول جاءها المخاض بعيسى المسيح إلى جذع نخلة (٢٦).
وسعف النخل يُستَخدم في مناسبات تتصل بالموت، وعند زيارة القبور، وفي تزيين المقابر، وهي في المعتقد الشعبي رمز الحياة المتجددة (٢٧).

وفي الحديث الشريف (٢٨): إن النبي (ﷺ) قال للأَنْصار، خَضَرُوا صاحبكم (الميت) فما أَقَلَّ الْمُخْضِرِينَ يوم القيامة!
قالوا: وما التَّخْضِيرُ؟

قال: جريدة خَضَرَاء (من سَعَف النخل) توضع في أصل اليدين إلى أصل الترقوة.
ورَوَى ابن عباس أن رسول الله (ﷺ) مرَّ على قبرين.. ثم دعا بعسيب رَطَبٍ فَشَقَّهُ اثْنين وغرس على هذا واحداً، وعلى هذا واحداً، ثم قال: لعلَّهُ يُخَفِّفُ عَنْهَا ما لَمْ يُيَسِّسْ. لذلك يرى الفقهاء أَنَّهُ يُسْتَحَبُّ وضع السَّعَف الأخضر داخل القبر، ويستحبُّ أَنْ يُجَلَّلَ به القبر بعد الدفن (٢٩).

وامتدح أنبياء بني اسرائيل وأحبارهم النخلة وثمرها، وحثوا على غرسها، وكانت «دابورا» حكيمة اليهود في عهد القضاة تجلس للقضاء تحت جذع نخلة (٣٠).
وورد في الكتاب المقدس أن جدران هيكل سليمان منقوش بتمائيل النخل. ومن طقوس

(٢٦) سورة مريم، آية ٢٣.

(٢٧) محمد الجوهري: علم القولكلور، ص ٦٩، ٥٤٩.

(٢٨) الإمام البخاري، صحيحه، مطابع دار الشعب، القاهرة ج ٢ ص ١١٩.

(٢٩) البخاري أدب ٤٦، طهارة ١١١، وأبو داود، طهارة ١١، والنسائي طهارة ٢٦، وأحمد بن حنبل ٥، ٢٩٢. وانظر السهمودي علي عبدالله: وفاة الوفا بأخبار دار المصطفى، القاهرة ١٩٥٥ م ج ٢ ص ١٢٩. ويبدو أن العرب كانوا يضعون على القبور عند الدفن أغصان بعض أشجار السلم، وإلى ذلك أشار دريد بن الصمة في قوله:

رَأَيْتُ مَكَانَهُ فَعَطَفْتُ زَوْراً وأَيُّ مَكَانٍ زَوَّرَ يابن بَكْرٍ
على إرَمٍ. وأحجارٍ وجِيزٍ وأَغْصَانٍ مِنَ السَّلَمَاتِ سُمِرِ

أنظر ديوان دريد بن الصمة الجشمي، تحقيق: محمد خير البقاعي، دار قتيبة، دمشق ١٩٨١ ص ٦٩.

(٣٠) توفيق الفكيكي: شجرة العذراء ص ٣٠.

اليهود الدينية في عيد (العرازيل) أن يأخذ اليهودي سَعَفاً طرياً فيسجد له، ويحمله بيده عند تلاوته صلاة العيد رمزاً للفرح والابتهاج^(٣١) وسمي اليهود فتياتهم بـ «تَامَار» أي التمر تَفَاؤلاً بالجمال، وتيمناً بالإنجاب والخُصوبة^(٣٢).

وبجّلت الديانة المسيحية النخلة، فقد وَرَدَ في الإنجيل أن أنصار المسيح (ع) فرشوا في طريقه سَعَفَ النخل عندما دخل القدس قبيل عيد الفصح بأسبوع^(٣٣).

لذلك يحرص النصارى على تزيين جدران معابدهم بسعف النخيل، وإقامة الشعائر الدينية في (عيد الشعانين) وأحد النخيل، بحمل سَعَفَ النخيل.

ولعل سبب ذلك أن ميلاد السيد المسيح مرتبط بالنخلة، وكان الاحتفال بيوم الشعانين عيداً عاماً يشترك فيه جمهور الناس في العصر العباسي، وقد شارك فيه الخلفاء العباسيون أنفسهم كما يُفهم من نص أبي الفرج الأصفهاني في كتاب الأغاني^(٣٤).

وبقي أحد الشعانين عيداً كبيراً للعامة في مصر في القرن الرابع الهجري، وكانت الوصائف في أحد الشعانين في قصر الخلافة ببغداد يظهرون متزيّنين في ثياب جميلة غالية وفي أعناقهن صُلبان من الذهب، وبأيديهن قُلُوب النخل وأغصان الزيتون. وكان من عادة الأطفال في بيت المقدس ان يذوروا حول جبل الزيتون بأيديهم سعف النخل وأغصان الزيتون، أما الأقباط فكانت عاداتهم أن يقطعوا قُلُوب النخل وسعفه وأغصان الزيتون يوم (سبت العازر) ويدورون بها ثم يضعونها أمام الهيكل. وفي الكنيسة الغربية يحتفل الناس في يوم أحد السَعَفَ بمباركة الزيت المقدس^(٣٥).

وقد مثّل اتحاد روح الآلهة بالأشجار الضخمة، - خاصة شجرة النخيل - اعتقاداً

(٣١) المصدر السابق، ص ٣١.

(٣٢) المصدر السابق ص ٣٠.

(٣٣) قاموس الكتاب المقدس، مكتبة المشعل، بيروت ١٩٨١ م ص ٩٦٤.

(٣٤) آدم متر: الحضارة الإسلامية ترجمة: محمد عبدالمهدي أبو ريدة، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٦٧ م ج ٢ ص ٢٨٤، وتوفيق الفكيكي: شجرة العذراء ص ٣١ - ٣٢، والأصفهاني أبو الفرج علي بن الحسن (ت ٣٥٦هـ): الأغاني ج ٩ ص ١٢٨.

(٣٥) انظر إشارة ابن الكلبي إلى ذُبَيْبَة بن خَرَمي السُّلَمي سادن العُزْرى، التي جسموها بثلاث سُمُرَات بطن نخلة.

ميتولوجياً وسحرياً واسع الانتشار في الجزيرة العربية قبل الإسلام، وعدّوا حياة الأشجار شرطاً لسلامة روح الآلهة التي ترتبط بها طقوسياً وسحرياً؛ لذلك كان لبعض الأشجار حُرّاس من أبناء القبيلة ومن الكهنة والأتباع^(٣٦) وفي السيرة النبوية إشارة صريحة إلى أن أهل نجران كانوا يتعبّدون لنخلة طويلة بين ظهرائهم، لها عيد كل سنة وإذا كان ذلك العيد علّقوا عليها كل ثوب حسن وجدوه وحلي النساء، ثم خرجوا إليها فعكفوا عليها يوماً^(٣٧). وهي مُشابهة لـ «ذات أنواط» التي كانوا يحجون إليها كل سنة فيعلّقون أسلحتهم عليها ويذبحون عندها ويعكفون عليها. ولا شك عندي أن ذات أنواط نخلة أيضاً^(٣٨).

وربما يكون التقديس لاعتقادهم بحلول أرواح الأسلاف فيها، أو لزيادة خصوبة النساء العاقرات اللاتي يَضَعْنَ حليهن وأثوابهن على أغصانها كما هو عند الشعوب الأخرى.

وقدّست أيضاً جُهيّنة وحنيفة النخلة، وصنعوا من تمرها صنماً لهم، وعندما اضطروا لأكله أيام المجاعة لمزهم بعض الشعراء، بقوله:

أَكَلْتُ جُهيّنة رَبِّها زَمَنَ التَّقَحُّمِ وَالْمَجَاعَةِ
وقال آخر:

أَكَلْتُ رَبِّها حنيفةً مِنْ جُبو عٍ قديمٍ بها ومن إِعْوَازٍ^(٣٩)

وليس من شكّ عندي أن النخلة تجسّد للآلهة «عشتر» أو «عشتار» أو «عشتر» ربّة الخصب والنتاج، التي تُمثّل «الزّهرة» في السماء، وقد وردت بهذا المعنى في النقوش المعينية.

وكانت تُدعى في البابلية منتجة الخضرة والنبات وقد قُرِنت بعبادة النخل خاصة والأشجار عامة عند الساميين منذ قديم الزّمان، فأطلقوا اسمها على كل صنم مصنوعٍ من خشب، وورد اسمها أيضاً في التّوارة.

(٣٦) ابن هشام، أبو محمد، عبد الملك بن هشام (ت ٢١٨ هـ) السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا وآخرين، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٧١ م، ص ٢٢.

(٣٧) ابن هشام: السيرة النبوية ص ٨٤٤.

(٣٨) ذات أنواط: قيل شجرة ذفّاء من طَلْح، وقيل سدر، أو طرفاء. ولا شكّ عندي أنها نخلة، ففي الحديث: أن وفد عبد القيس قديموا على رسول الله (ﷺ) فأهدوا له نوطاً من تَعَضُّوضِ هَجْر: أي أهدوا له جُلة صغيرة من تمر التَعَضُّوض وهو من أسرى تَمْران هَجْر، أسود جَعْدٌ لحيمٌ عذب الطعم حلّو. انظر: ابن منظور: اللسان مادة (نوط).

(٣٩) الألوسي: بلوغ الأرب ج ٢ ص ٢٢٧.

وكانت تُمثَّل عادةً بجذع نخلة فُصِّلَتْ عن أغصانها وكان الساميون يعتقدون أنَّ هذه الإلهة تسكن جذوع الأشجار وأن أرواحها قادرة على البطش والانتقام^(٤٠).

(٢) الشجرة في التراث العربي

ودلت الدّراسات على أنَّ عِشْتار البابلية ونجمة الصبح (الزُّهْرَة) والعُزَّى العربية كلمات مترادفةٌ لإلهة واحدة، وقد مُثِّلَت العُزَّى امرأةٌ حسناء تلبس القلائد والقُرُوط والأقنعة في صورة الزُّهْرَة عند العرب البابليين، والقِنَاع الذي مَيَّز عِشْتار كان للعُزَّى في تصوّر العرب: «أُعزَّى أَلْقِي القِنَاعَ وَشَمْرِي» وَوَجْهَ العُزَّى الجميل تَغَيَّرَ إلى وجه امرأة سوداء نافشة شعرها عندما هَدَمَهَا خالد بن الوليد، وما ذلك إلّا رد فعل للأسطورة القديمة في عصر الإسلام^(٤١).

ولا شك أن تقديس النخل له علاقة بكونه من رُمُوز الخُصُوبة والأنوثة لذلك كانت النِّساء الجاهليات يَصْنَعْنَ حليهن وأثوابهن على جُذُوع نخلة نجران، ابتغاءً للذرية من الإله «عِشْتار» التي كانت تلبس القلائد والقُرُوط، ومن هنا كانت مادة (عشر) في الحِسِّ اللُّغوي العربي تُفيد الحمل والممارسة الجنسية والخُصُوبة والتكاثر، ومنها: عِشْرَة، ومُعاشِرَة، تَعَشِير، وعُشْرَاء^(٤٢).

وقد بقيت النخلة مُكْرَمَة حتى العصر الفاطمي والملوكي، حيث كان الناس يزيّنون أشجار النخيل بأزياء نسائية مُلوّنة في أيام الطَّرح والتلقيح في فصل الربيع^(٤٣).

وقد ذكر محمد بن عبد الوهاب أن «نَخْلَة مَنْفُوحَة» باليمامة (المملكة السعودية) كان يُؤمُّها الناس طلباً للبركة والشفاء. وظل المصريون يُقَدِّسون الأشجار حتى أواخر القرن التاسع عشر وأهم الأشجار التي قدسوها الأشجار الضخمة الغليظة الجذوع كالجُمَيْرَة وسموها «الشيخة»

(٤٠) محمود جمعة: النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والأمم السامية، طبعة مصر (د.ت) ص ١٣٢ - ١٣٥.

(٤١) انظر: محمد عبد المعيد خان: الأساطير والخرافات عند العرب، دار الحداثة، بيروت ١٩٨٠ ص ١٢٨ - ١٣٤.

(٤٢) ابن منظور: لسان العرب، مادة (عشر).

(٤٣) شوقي عبد الحكيم: موسوعة الفولكلور والأساطير، ص ٦٦٧، ويؤيّد أن المقتدر بن بركة رصاص حولها بستان نخل فيه أربع مائة نخلة، وطول كل واحدة خمسة أذرع قد لبس جميعها ساجاً منقوشاً من أصلها إلى حد الجُمَيْرَة بحلق من شبه مذهبة.

انظر: آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ص ٢١٩، نقلاً عن تاريخ بغداد ص ٥٣ - ٥٤ (طبعة سلمون).

خضرة»^(٤٤) وهو تعميم لا يُثبت التحقيق العلمي، ويحمل في طياته صيغة تهكمية. وبقي تقديس الأشجار في بلاد العرب إلى عهد قريب، فقد وصف المستشرق (داوت) هذه الأشجار التي تُسمى «مناهل» ويعتقد الناس أنها مسكونة من الجن والملائكة؛ لذلك حرموا قطع أغصانها، وكانوا يحجون إليها ويتقربون منها بالضحايا ويُعلقون على أغصانها اللحم والحُرز، ويعتقدون قدرتها على شفائهم من الأمراض^(٤٥).

ولعل استمرار الاعتقاد بالنخلة أن القرآن الكريم عدها شجرة مباركة، فدُكرت في اثنتين وعشرين آية^(٤٦)، وأنها من طعام أهل الجنة^(٤٧).

وضربها الله (عز وجل) مثلاً لقوله: «لا إله إلا الله» فقال^(٤٨): «ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة» وهي قوله: «لا إله إلا الله» «كشجرة طيبة» وهي النخلة^(٤٩) وليس شيء أكرم على الله - تعالى - من شجرة وُلد تحتها عيسى المسيح^(٥٠).

وربما يبيع الرسول (ﷺ) أصحابه تحتها فَرَضِي الله عنهم^(٥١).

ولو أن الله علم شيئاً خيراً من رطبها لأطعمه مريم حين نفست بعيسى عليه السلام^(٥٢).

(٤٤) سعد الخادم: الفن الشعبي والمعتقدات السحرية ص ٣٠.

(٤٥) محمود سليم الحوت: في طريق الميثولوجيا عند العرب دار النهار للنشر ١٩٨٣ ص ١١١. نقلاً عن كتاب و. سمث: ديانة الساميين، لندن ١٨٩٤ م، ص ١٨٥.

(٤٦) مريم ٢٥، ٢٦، الرحمن ٦٨، ١١، الكهف ٣٢، الشعراء ١٤٨، عبس ٢٩، الأنعام ٩٩، ١٤١، ق ١٠، القمر ٢٠، المؤمنون ١٩، الرعد ٤، النحل ١١ و ٦٧، يس ٣٤، ٣٩، الاسراء ٩١، البقرة ٢٦٦، طه ٧١، الحاقة ٧، الحشر ٥.

(٤٧) الرحمن، آية ١١.

(٤٨) سورة إبراهيم، آية ٢٤.

(٤٩) أبو حاتم السجستاني: كتاب النخل، ص ٣٣.

(٥٠) سورة مريم، آية ٢٣ - ٢٦.

(٥١) في سورة الفتح، آية ١٨: «لقد رَضِيَ الله عن المؤمنين إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ» وَرَجَّحَ البيضاوي أَنَّ الشَّجَرَةَ كَانَتْ سَمُرَةً أَوْ سِدْرَةً. انظر تفسيره ج ١ ص ٢٦٩. وأكسبت هذه الشجرة أهمية بالغة في نفوس الناس في عهد عمر بن الخطاب، فأمر باجتثاثها تحريزاً من تقديسها في العصور اللاحقة.

(٥٢) ابن نايقا البغدادي: الجمان في تشبيهات القرآن، ص ١٣٥.

وما جاء في الحديث الشريف أن النخلة خُلِقَتْ من فَضْلة آدم وأنها عَمَّةٌ لبني البَشَر (٥٣).

وفي الحديث: «خَيْرُ الْمَالِ سِكَّةٌ مَأْبُورَةٌ» أي سِكَّةُ نَخْلٍ مصلحة (٥٤). وما رُوي عن عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت: كَانَ أَحَبُّ الْفَاكِهَةِ إِلَى النَّبِيِّ (ﷺ) الرُّطْبُ والبَطِيخُ، وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ هُمَا الْأَطْيَبَانِ (٥٥).

وما جاء في الحديث من الْحَثُّ عَلَى إِكْرَامِ النَّخْلةِ، والعناية بها وأكل ثمرها (٥٦). هذا الموروث الأسطوري والديني جَعَلَهُمْ يَعْتَقِدُونَ فِي عَصْرِ الْعَقْلِ - إن جاز هذا القول - أَنَّ النخلة نباتيةٌ الْجِسْم، حيوانيةُ الرُّوح، قال الدميري (٥٧):

إِنَّ النخلة تُشَبِّهُ الْإِنْسَانُ؛ فِيهِ ذَاتُ جَذْعٍ مُتَّصِبٍ، وَمِنْهَا الذَّكَرُ وَالْأُنْثَى، لَا تُثْمِرُ إِلَّا إِذَا لَقِحَتْ، وَإِذَا قُطِعَ رَأْسُهَا مَاتَتْ، وَإِذَا تَعَرَّضَ قَلْبُهَا لَصْدْمَةٍ قَوِيَّةٍ هَلَكَتْ، وَإِذَا قُطِعَ سَعْفُهَا لَا تَسْتَطِيعُ تَعْوِيزُهُ مِنْ مَحَلِّهِ، كَمَا لَا يَسْتَطِيعُ الْإِنْسَانُ تَعْوِيزَ مَفَاصِلِهِ.

والنخلة مُعْشَاةٌ بِاللَّيْفِ الشَّبِيهِ بِشَعْرِ الْجِسْمِ فِي الْإِنْسَانِ، فَهِيَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ شَبِيهَةٌ بِالْبَشَرِ.

وقال ابن وحشية (٥٨):

النخلة تُشَبِّهُ الْإِنْسَانَ مِنْ حَيْثُ اسْتِقَامَةُ قَدِّهَا وَطَوْلُهَا وَامْتِيازُ فَحَالِهَا عَنْ أَنْشَاهَا

(٥٣) أبو حاتم السجستاني: كتاب النخل، ص ٣٤ وانظر مصادر تخريج الحديث في الحاشية وانظر الحديث أيضاً عند ابن وحشية: كتاب النخل، ص ٧٠.

(٥٤) أبو حاتم السجستاني: كتاب النخل، ص ٧٢.

(٥٥) محمد السفاريني الحنبلي: شرح ثلاثيات مسند الإمام أحمد، ج ٢ ص ٥٥٣ (سبق ذكره). وربما لهذا السبب اقتصر أطعمة الرُّهَاد في العصور الإسلامية على صنف أو صنفين من الأطعمة منها الخَيْسُ والتَّمْر. انظر: ابن بكار، أبو عبدالله الزبير (ت ٢٥٦ هـ): جمهرة نسب قريش وأخبارها، تحقيق: عمود شاكر، طبعة القاهرة ١٣٨١ هـ، ج ١ ص ٢٦٦.

(٥٦) جمع هذه الأحاديث عبدالله عبدالرزاق السعيد في كتاب: الإعجاز الطبي في القرآن، ص ١٣ وما بعدها. وذكر السجستاني كثيراً منها في كتاب النخل ص ٣٤ وما بعدها.

(٥٧) الدميري، كمال الدين (ت ٧٤٥ هـ) حياة الحيوان الكبرى، طبعة القاهرة ١٣٢١ هـ، ص ٢٣١.

(٥٨) ابن وحشية: كتاب النخل، ص ٧٠، والفزوي عجائب المخلوقات ص ٢٣١.

واختصاصها باللقاح الظاهر للعيان ولو قُطِعَ رأسها هَلَكَتْ، ولَطْلَعُهَا رائحة المني ولها غِلاف كالمشيمة التي يكون فيها الولد. والجُمار الذي في رأسها لو أَصَابَهُ آفة هَلَكَتْ النخلة لا محالة فهو بمنزلة المَخ من الإنسان إذا أَصَابَتْهُ آفة. ولو قُطِعَ منها سَعَفَةٌ لا يرجع بدلها فهي كعضو الإنسان، وعليها ليفٌ يُشَبِّه الشعر الذي في الإنسان.

وإذا قَارَبَتْ بين دُكْرَانِ النخل وإناتها كَثُرَ حملها لأنها تَسْتَأْنِسُ بالمجاورة وإذا قُطِعَ إنفها من الدُكران فلا تحمل شيئاً حَزْناً على فراق إلفها. وإذا غرست الدُكران وسط الإناث فهبت الريح شَمَّتْ الإناث رائحة الفُحَالِ وربما نالها شيء من لقاحها فحملت من تلك الرائحة كل إنثى حولها.

ولا شكَّ أَنَّ تَمَيُّزَ دُكُورِ النخل عن إناثه جعلهم يعتقدون أَنَّ النخل أَقْرَبُ إلى الحيوان منه إلى النبات وأنَّ للشجر شخصيةً متفردة، وحياةً خاصة فسَمَوْا الدُكُورَ فُحُولاً، واعتقدوا بقدرتهم على خِذَاعِ النخل بالإيهام بَقَطْعِهَا كي تُثْمِرَ، وهذه الطُّقُوسُ السحرية عَرَفَتْهَا الشُّعُوبُ القديمة أيضاً في أشجار أخرى^(٥٩).

قال ابن وحشية^(٦٠):

وإذا لم يُثْمِرْ شيءٌ من النخلة يأخذ الرَّجلُ فأساً ويقرب منها ويقول لصاحبه الذي يكون معه: إني أريد قطعَ هذه الشجرة لأنها لا تُثْمِرُ. فيقول صاحبه: دعها وشأنها هذه السنة ولا تَمَسَّهَا بأذى فإنها تُثْمِرُ من قَابِلٍ. فيقول الرجل: إنها لا تنفعنا في شيء ويضرُّها ضرباتُ بفأسه يقطع بها سَعَفَاتٌ كثيرة حتى يصلَ إلى ما يقرب من قلبها، فيمسكه حينئذٍ صاحبُ يده ويقول له: لا تفعل فإنها شجرة طيبة نافعةٌ مثمرة لا محالة وأصبر عليها هذه السَّنة فإن لم تُثْمِرْ فأصنع بها ما شئت. قُلْنَا: فإذا فعلَ ذلك فإنَّ النخلة تُثْمِرُ ثمرأً كثيراً.

وتصوروا في النخيل قُوى عاقلة، وروحاً حساسة، تتأثر بتصرفات غيرها من البشر، قال ابن وحشية^(٦١):

(٥٩) انظر: فريزر: الغصن الذهبي، ج^١ ص ٣٩٦ وما بعدها.

(٦٠) المصدر السابق، ص ٧٠، والقزويني، عجائب المخلوقات، ص ٢٣١.

(٦١) ابن وحشية، كتاب النخل ص ٦٨.

يَحْسُنُ بالغارس أن يَتَّصِفَ بهذه الخِلال؛ وهي أن يكون بَلْغَمِي المزاج وَمِنْ عُشَاقِ البَدْر، تَأَمَّ الجسمَ لا عَيْبَ فيه ولا تشويه، ولا يَجُوزُ له أن يغرس الفسيلة في اليوم الثاني من الهِلَال. ويجب أن يكون فَرِحاً هَاشِئاً ضَحُوكاً أو مُبْتَسِئاً وأن لا يُكْرَهَ على الغَرْسِ بل يتوخَّاه بطيبة خاطر، وأن لا يكون به بَخْرٌ أو حُزْنٌ فقد رأينا الذين لا يتبعون هذه الوَصَايا جاءهم النخل خبيثاً مُعْرِضاً لأنواع العاهات لا تُلْقَحُ أنثاه إلا نادراً.

وقد أضاف خيال القُصَّاصِ حكاياتٍ عن النخلة نَسَبُها إلى النبي (ﷺ)، فرووا أن النخلة قد طأطأت رأسها أمام النبي (ﷺ) وأُحْنَتْ هامَتها له في محاولةٍ منها لتقبيل يده الكريمة، ويوم أن توفي الرسول شاهد الناسُ أمراً مُذهِلاً وشيئاً عجبياً، لقد تَغَيَّرَ شَكْلُ سَعَفِ النخل الذي كان يجاور المِئْبَرِ الشَّرِيف، وتَقَوَّسَتْ عُرُوقُه في أَسْفِ مُبِين، وتَهَدَّلَتْ أوراقه في منظرٍ حزين، ويقطع مَنْ حضروا أنهم رأوا من السَّعَفِ البُكَاءَ وَسَمِعُوا الأنينَ^(٦٢).

(٣) الشجرة النخلية في الشعر الجاهلي

وجاءت صورة النخلة في القصيدة الجاهلية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بموروث الشاعر الأسطوري، ورافقت القصيدة في رحلة الطَّعَّانِ ووصف المرأة، والبكاء على الراحلين، ورحلة الشاعر على الناقة ثم حديثه عن الحرب والرجال والخيل والرماح.

(أ) النخلة والطعائن

ترتبط الطعائن في أذهان الشعراء الجاهليين بالشجر العظيم، والشَّفْنِ السَّابِحة، ويخصُّ الشعراء النخل الباسق بأهمية بالغة دون غيره من الأشجار، ويكثر في أشعارهم تشبيه الطَّعَّانِ المُتَحَمِّلِ بالنخل المُحَمَّلِ بالثَّمَرِ، قال عبيد بن الأبرص^(٦٣):

(٦٢) انظر: عبدالرزاق نوفل: صنع الله، كتاب اليوم، القاهرة العدد ١٣٧، سنة ١٩٧٨ م، صفحات متفرقة، وكذلك انظر: عبدالمحسن صالح: الإنسان الحائر بين العلم والخرافة، عالم المعرفة، الكويت ١٩٧٩ م، ص ١٧٥. وقد نشر الأمريكي باكستر سنة ١٩٦٨ م بحثاً عنوانه: «حياة النبات الغامضة» معتمداً على أبحاث مخبرية أكد فيه أن النباتات أرق إحساساً من الإنسان، وأنها تتفاعل بالأحداث حولها. وقام العالم الروسي «بوشكين» بتأكيد نظريته وزاد عليه أن النباتات تشارك الناس أفكارهم وتعرف أسرارهم، وتقرأ أفكارهم. انظر عبدالمحسن صالح: الإنسان الحائر بين العلم والخرافة ص ١٧٧ - ١٨١.

(٦٣) عبيد بن الأبرص: الديوان ص ١٢٨.

كَأَنَّ أَطْعَانَهُنَّ نَخْلٌ مُوسَّقَةٌ سُودٌ ذَوَائِبُهَا بِالْحَمْلِ مَكْمُومَةٌ
وقال عمرو بن قميئة (٦٤):

تَخَالُ حُومُهُمْ فِي السَّرَا بَلِّمَا تَوَاهَقْنَ سُحْقًا طَوَالَا
كَوَارِعَ فِي حَائِرٍ مُفْعَمٍ تَغْمُرُ حَتَّى أَتَا وَأَسْتَطَالَا
وقال امرؤ القيس (٦٥):

أَوْ مَا تَرَى أَطْعَانَهُنَّ بِوَائِرًا كَالنَّخْلِ مِنْ شَوْكَانَ حِينَ صِرَامٍ
وقال المرقش الأكبر (٦٦):

بَلْ هَلْ شَجَّتْكَ الظُّعْنُ بَاكِرَةً كَأَنَّهُنَّ النَّخْلُ مِنْ مَلْهَمٍ
وقال أوس بن حجر (٦٧):

وَكَأَنَّ ظُفْعْنَ الْحَيِّ مُدْبِرَةً نَخْلٌ بِزَارَةِ هَمْلُهُ السُّعْدُ
وقال زهير (٦٨):

تَبَصَّرَ خَلِيلِي هَلْ تَرَى مِنْ طَعَائِنٍ كَمَا زَالَ فِي الصُّبْحِ الْأَشَاءُ الْحَوَائِلُ
وقال النابغة (٦٩):

كَأَنَّ حُدُوجَهُمْ فِي الْأَلِ ظَهْرًا إِذَا أَفْرَعْنَ مِنْ نَشْزِ سَفِينُ
أَوِ النَّخْلَاتُ مِنْ جَبَّارِ قَرْحٍ تُرَبِّهِنَّ يَغْبُوبُ مَعِينُ

(٦٤) عمرو بن قميئة: الديوان، ص ١٦١.

(٦٥) امرؤ القيس: الديوان ص ١١٥، وفي ديوانه أمثلة أخرى ص ٤٣، ٥٧، ١٦٨، ١٦٩.

(٦٦) المفضل الضبي: المفضليات، ص ٢٣٨.

(٦٧) أوس بن حجر: الديوان، ص ٢٢.

(٦٨) زهير بن أبي سلمى: الديوان، ص ٢١٤.

(٦٩) النابغة الذبياني: الديوان، ص ٢١٩.

وقال الطفيل الغنوي (٧٠):

أشأقتك أظعانٌ بجفنٍ يَنبِمِ نَعَمْ بُكْرًا مِثْلَ الْفَسِيلِ الْمُكَمِّمِ
وقال أبو دؤاد الإيادي (٧١):

وتراهنَّ في الهَوَاجِ كَالغَزِ لَإِنْ مَا إِنْ يَنَالُهُنَّ السَّهَامُ
نَخْلَاتٌ مِنْ نَخْلٍ بَيَّسَانٍ أَيْنَعِ نَ جَمِيعاً وَنَبَّتَهُنَّ تُؤَامُ
وقال عبيد بن عبدالعزيز السلمي (٧٢):

رَبِيعُهُمُ وَالصَّيْفُ ثُمَّ تَحَمَّلُوا عَلَى جَلَّةٍ مِثْلَ الْحَيَّاتِ ضَمَّرِ
شَوَاكِلَ عَجَّاجٍ كَأَنَّ زَمَامَهُ بِذُكَّارَةِ عَيْطَاءٍ مِنْ نَخْلٍ خَيْرِ
كَسَوْهَا سَخَامَ الرُّيْطِ حَتَّى كَأَنَّهَا حَدَائِقُ نَخْلٍ بِالْبَرُودَيْنِ مُوقِرِ
وقال لبيد (٧٣):

فَرُحْنَ كَأَنَّ النَّادِيَاتِ مِنَ الصَّفَا مَذَارِعَهَا وَالكَارِعَاتِ الْحَوَامِلَا
بِذِي شَطَبٍ أَحْدَاجُهَا إِذْ تَحَمَّلُوا وَحَثَّ الْحِدَاةُ النَّاعِجَاتِ الدَّوَامِلَا
وقال لبيد أيضاً (٧٤):

فَكَأَنَّ ظُعْنَ الْحَيِّ لَمَّا أَشْرَفَتْ بِالْأَلِ وَأَزْتَفَعَتْ بِهِنَّ حُزُومُ
نَخْلٍ كَوَارِعُ فِي خَلِيجٍ مُحَلَّمِ حَمَلَتْ فِيهَا مُوقِرُ مَكْمُومِ
سُحْقٌ يَمْتَعُهَا الصَّفَا وَسَرِيرُهُ عَمُّ نَوَاعِمُ بَيْنَهُنَّ كُرُومُ

(٧٠) الطفيل الغنوي: الديوان، ص ٧٢.

(٧١) الأصمعي: الأصمعيات، ص ١٨٦.

(٧٢) يحيى الجبوري: قصائد جاهلية نادرة، ص ١٨١.

(٧٣) لبيد بن ربيعة: الديوان، ص ٢٤٢.

(٧٤) لبيد بن ربيعة: الديوان، ص ١٢٠.

وقال أيضاً^(٧٥):

يَوْمَ أَرْزَأَقُ مَنْ يُفْضِلُ عُمُ
فَإِخِرَاتُ ضُرُوعِهَا فِي ذُرَاهَا
مُوسَقَاتٌ وَحُفْلٌ أَبْكَارُ
وَأَنَاضُ الْعَيْدَانِ وَالْجَبَّارُ

وقال أيضاً^(٧٦):

كَأَنَّ أَطْعَامَهُمْ فِي الصُّبْحِ غَادِيَةً
أَوْ بَارِدُ الصَّيْفِ مَسْجُورُ مَزَارِعُهُ
جَعَلَ قِصَارَ وَعِيدَانِ يَنْوُءُ بِهِ
يَشْرَبْنَ رَفْهًا عِرَاكًا غَيْرَ صَادِرَةٍ
بَيْنَ الصَّفَا وَخَلِيجِ الْعَيْنِ سَاكِئَةٍ
طَلَحَ السَّلَائِلُ وَسَطَ الرُّوضِ أَوْ عُشْرُ
سُودَ الدَّوَائِبِ مِمَّا مَتَّعَتْ هَجْرُ
مِنَ الْكَوَاغِرِ مَكْمُومٌ وَمُهْتَصِرُ
فَكُلُّهَا كَارِعٌ فِي الْمَاءِ مُغْتَمِرُ
غَلَبَ سَوَاجِدُ لَمْ يَدْخُلْ بِهَا الْحَصْرُ

التشبيه في مثل هذا الموضع لا يُراد منه تزيين الصورة أو توضيح ما غمض فيها، ولا يراد منه تلك الحدود التي بينها علماء البلاغة عندما جعلوا من أغراض التشبيه تعريف حال المُشَبَّهِ ومقداره وإمكانه وتقرير ثبوته في الذهن أو تزيينه أو تشيينه أو استطرافه وزيادة الاهتمام به، أو إفادة التساوي، والظن والتوهم والتقريب والتحقيق ومعرفة المقدار والقوة والضعف والزيادة والنقصان^(٧٧). إنما التشبيه هنا يضرب في أعماق الوجود الإنساني الذي يسعى إلى اقتناص الحقيقة^(٧٨). وقد عُتيت شروح القدماء بتبيين أوجه الشبه بين الظعن المزينة بالهوادج والعُهون والطنافس وأنواع الوشي الملون، وأشجار النخيل عندما تكون مُحَمَّلَةً بِالْبَلَحِ الأحمر الزاهي، والسَّعْفِ الأخضر، والطلح الأصفر، وقد نَقَرَحُ أوجهاً أخرى للتشابه في الطول والجِرم، والشكل، لكن البحث عن الأوجه الشكلية الظاهرية يبعدنا وينأى بنا عن حقيقة هذا التشبيه المتكرر في الشعر القديم. وقد نَقَرَحُ حلاً أقرب إلى روح الشاعر الجاهلي من حسه الظاهر، فنقول: ما دام الإنسان القديم قد رأى في أشجار النخيل معاني الخصب والحياة، فإن زوال هذه الأشجار من أماكنها بعد أن كانت طعامه وشرابه وقيته، كارثة تستحق البكاء والدموع،

(٧٥) المصدر السابق، ص ٤١-٤٢.

(٧٦) المصدر السابق، ص ٥٨-٦٠.

(٧٧) شروح التلخيص ج ٣ ص ٣٩٠-٤١٦.

(٧٨) نصرت عبدالرحمن: الصورة الفنية في الشعر الجاهلي، ص ١٠٦.

فرحيل الطعائن فاجعة كما أنَّ رحيل هذه الأشجار يعني الموت والهلاك، ومن ثمَّ فهو يتكبي على حياة الخصب التي تمثِّلها النخلة.

وإذا اخترنا تفسيراً آخر معتمداً على المضامين الأسطورية نجدُ النخلة ترتبط بصورة المرأة الحسنة المخصبة، وترمزُ إلى الأنوثة والحمل والإخصاب الجنسي، ومن ثمَّ كانت نخلة نجران ملجأً للنساء العاقرات يُعلّقن على سَعفها قُرُوطهن وحليهن ويكسبنها وبأثوابهن الملوّنة الزاهية. لذلك كله جاءت صورة الطعائن وما تحمّل من هودج ملوثة، وما عليها من رقم فاخر وأنماط جميلة وكِلّة زاهية وعِقمَة فارسيّة، ونساء جميلات متحليات بالياقوت والشّذر والجزع الطُّفاري والدّر التّوائم - ترتبط ارتباطاً روحياً بالنخلة، ومن أجل ذلك كان تركيز الشعراء على عناصر الأنوثة في صفات النخيل عند التشبيه بالطعائن فهنَّ حوامل، عُم نواعم، وسود الذّوائب، وحُفْل أبكار، وفاخرات ضروعها^(٧٩).

وإذا كان الشاعر الجاهلي يفخر كثيراً بأنّه «حامي الطّعيّنة» نراه يفخر بأنّه «حامي النخلة» في موضع حديثه عن الطعائن، قال امرؤ القيس^(٨٠):

فَشَبَّهْتُهُمْ فِي الْأَلِّ لَمَّا تَكَمَّشُوا	حَدَائِقَ دَوْمٍ أَوْ سَفِيناً مُقَيَّرَا
أَوْ الْمُكَرِّعَاتِ مِنْ نَخِيلِ ابْنِ يَامِنْ	دَوَيْنَ الصَّفَا اللَّائِي يَلِينُ الْمُشْقَرَا
سَوَامِقَ جَبَّارٍ أَثِيثٍ فُرُوعُهُ	وَعَالِينَ قَنَوَاناً مِنَ الْبُسْرِ أَحْمَرَا
حَمَتُهُ بَنُو الرَّبْدَاءِ مِنْ آلِ يَامِنْ	بِأَسْيَافِهِمْ حَتَّى أَقَرَّ وَأَوْقَرَا
وَأَرْضِي بَنِي الرَّبْدَاءِ وَأَعْتَمَ زَهْوُهُ	وَأَكْمَامُهُ حَتَّى إِذَا مَا تَهَضَّرَا
أَطَافَتْ بِهِ جِيلَانُ عِنْدَ قِطَاعِهِ	تَرَدَّدَ فِيهِ الْعَيْنُ حَتَّى تَحْيَرَا
كَأَنَّ دُمَى سَقْفٍ عَلَى ظَهْرِ مَرْمَرٍ	كَسَا مُزِيدَ السَّاجُومِ شَيْئاً مُصَوَّرَا
غَرَائِرُ فِي كِنٍّ وَصَوْنٍ وَنِعْمَةٍ	يُحْلِلْنَ يَاقُوتاً وَشَذْراً مُفَقَّرَا

وأهم عناصر الأنوثة في النخلة الحمل والثمر، ودائماً نرى النخلة مخصبة تنوء بحملها، غزيرة الإنتاج «أماً ولوداً» إن جازَ هذا التعبير، ونرى هذا العنصر في مثل قولهم: نَبْتُهُنَّ تَوَام،

(٧٩) انظر: ديوان لبيد ص ٤١، ٥٨، ١٢٠، ٢٤٢.

(٨٠) امرؤ القيس: الديوان، ص ٥٧-٥٩.

الأشياء الحوامل، نخيل موفر، مكُموم ومهتصر، واعتَمَ زَهُوهُ وأَكَمَامُهُ، والفَسِيلُ المُكَمَّمُ (٨١).
لذلك تَحْتَلِطُ صورة المرأة بصورة النخلة، يقول امرؤ القيس (٨٢):

فَلَمَّا تَنَازَعْنَا الْحَدِيثَ وَأَسْمَحْتُ هَصَرْتُ بَغْصِنِ ذِي شَمَارِيخِ مَيَالٍ

في هذه الصورة يكاد امرؤ القيس يَحْتَضِنُ النخلة، ومن ثَمَّ كان شَعْرُ المرأة الكثيف كِعِذْقِ
النَّخْلَةِ المتداخل، قال امرؤ القيس (٨٣):

وَفَرَعٍ يُغْشِي الثَّنَّ أَسْوَدَ فَاحِمٍ أَثِيثٍ كَقَنْوِ النَّخْلَةِ الْمُتَعَشِّكِ
وَشَبَّهُوا رِيقَ مَحَبَّاتِهِمْ بِنَكْهَةِ الْبَلَحِ، قال لبید (٨٤):

وَكَأَنَّ فِيهَا إِذَا مَا اللَّيْلُ أَلْبَسَهَا سَيَّابَةً مَا بِهَا عَيْبٌ وَلَا أَثَرُ
وقال الأعشى (٨٥):

أَيَّامٌ تَجْلُو لَنَا عَنْ بَارِدِ رَيْلٍ تَحَالُ نَكْهَتُهُ بِاللَّيْلِ سَيَّابَا
وقال امرؤ القيس (٨٦):

فَكَأَنَّمَا أَغْتَبَقْتُ شَمُولًا بَارِدًا أَوْ مَائِعًا مِنْ مَائِعِ الْجَلْسِ
سَمَقْتُ بِهِ الصَّقْرُ الْعِتَاقُ بِشَامِخٍ دُونَ السَّمَاءِ مُصْعَدٍ شَكْسٍ

رِيقُ المرأة إشارة جنسية واضحة متصلة بشجرة النخل، وما يَرَجُّحُ ذلك ما رَعَمَهُ بعض
العرب القداماء أنهم كانوا في أسفارهم يجدون أُمَّةً مِنَ النِّسَاءِ عَلَى هَيْئَةِ أَشْجَارٍ تَتَمَتَّعُ الشَّجَرَةُ بِمَا

(٨١) أنظر: أبو دؤاد الإيادي، الاصحيات ص ١٨٦، وديوان زهير ص ١٣٠، وديوان لبید، ص ١٢٠، وديوان
عبید بن الأبرص ص ١٢٨، وديوان امرؤ القيس، ص ٥٨.

(٨٢) ديوان امرؤ القيس ص ٣٢.

(٨٣) المصدر السابق، ص ١٦.

(٨٤) لبید بن ربيعة: الديوان ص ٦١. السياب: البلح.

(٨٥) الأعشى الكبير: الديوان ص ٤١١.

(٨٦) امرؤ القيس: الديوان ص ٢٧٣. المائع: الذائب من العسل، المجلس والصقور: النخل، الشكس: الشديد
الصعود.

تتمتع به المرأة الحسناء، بل إنها تفوق المرأة بأنها أطيب رائحة وألذ مُبَاَصَّعة^(٨٧).

وقد سمّت العرب بناتها بأسماء النخلة تيمناً بالخصوبة وتجدد الحياة^(٨٨). وذكر ابن الأثير أن امرأة في الجاهلية كانت ترعى في بيتها نخلات وتقول هُنَّ بَنَاتِي^(٨٩)، وقد ربط بعض الشعراء فكرة تآبير النخل وتلقيحه بالنشاط الجنسي بين الذكر والأنثى فقالت أم ثواب الهزانية في ابنها^(٩٠):

رَبِّيئُهُ وَهُوَ مِثْلُ الْفَرْخِ أَغْظُمُهُ أَمَّ الطَّعَامِ تَرَى فِي رِيشِهِ زَغَبَا
حَتَّى إِذَا آصَ كَالْفُحَالِ شَذَّبَهُ أَبَارُهُ وَنَفَى عَنْ مَتْنِهِ الْكَرْبَا

ويأتي التعبير عن النخل (بنون النسوة)^(٩١) في الشعر الجاهلي إشارة واضحة إلى فكرة الأنوثة التي صوّرت في معتقداتهم، قال أبو دؤاد الإيادي^(٩٢):

وَتَرَاهُنَّ فِي الْمَوَادِحِ كَالْغِزْ لِأَنَّ مَا إِنْ يَنَاهُنَّ السَّهَامُ
نَخْلَاتٌ مِنْ نَخْلِ بَيْسَانَ أَيْنَعُ نَ جَمِيعاً وَنَبْتُهُنَّ تَوَامُ
فالمرأة والنخلة يجمعهما عنصر الخير و«الخصوبة الأنثوية» في قوله «نَبْتُهُنَّ تَوَامُ».

(ب) جَنَاتِ النَّخِيلِ وَالسَّائِنَةِ

يأتي حديث الشعراء عن جَنَاتِ النخيل بعد الحديث عن هجرة الطعائن ورحيل المرأة،

(٨٧) المسعودي، علي بن الحسين (ت ٣٤٦ هـ): أخبار الزمان ومن أباده الحدّثان وعجائب البلدان.. مطبعة الأندلس، بيروت ١٩٦٦ م، ص ٣٩.

(٨٨) ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم (ت ٢٧٦ هـ): أدب الكاتب، المطبعة السلفية، القاهرة ١٣٤٦ هـ، ص ٥٦.

(٨٩) ابن الأثير: المبارك بن محمد (ت ٦٠٦): المرصع في الآباء والأمهات، تحقيق إبراهيم السامرائي، مطبعة الإرشاد، بغداد ١٩٧١ م ص ٩٩.

(٩٠) المبرد، محمد بن يزيد (ت ٢٨٥ هـ) الكامل في اللغة والأدب، مكتبة المعارف، بيروت (د.ت) ج ١ ص ١٤١.

(٩١) في اللغة النخيل مؤنثة لا اختلاف في ذلك أما النخل فيذكر ويؤنث، وفي الذكر الحكيم تغليب للتأنيث على التذكير، قال تعالى: «أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقِيرٍ» و«النَّخْلُ بِاسْقَاتٍ» و«النَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ». انظر ابن منظور: لسان العرب، مادة (نخل) وكتاب النخل لأبي حاتم ص ٨٩، والقرآن الكريم، سورة القمر، آية ٢٠، وسورة ق، آية ١٠، والرحمن، آية ١١.

(٩٢) الأصمعي: الأصمعيات، ص ١٨٦.

أو بعد الحديث عن القَحْط والجَذْب المُمَثِّل بالظَّل والظَّعن، إذ نراهم يَسْفَحُون الدُّمُوع إثر الظعن المهاجرة، ويختارون صورة السَّانية الذَّهْماء التي تَنْضَح الماء من أعماق البئر شَبْهاً لدُمُوعهم الغِزار، لكن هذه الدموع أو هذه المياه تُسَكَّب من أجل جَنَّات النخيل^(٩٣)، قال زهير بن أبي سلمى^(٩٤):

كَأَنَّ عَيْنِي فِي غَرْبِي مُقَتَّلَةٌ من النَّوَاضِحِ تَسْقِي جَنَّةً سُحُفًا
تَمْطُو الرِّشَاءَ وَتَجْرِي فِي ثَنَائِيهَا من الْمَحَالَةِ ثَقْبًا رَائِدًا قَلِيقًا
لَهَا أَدَاةٌ وَأَعْوَانٌ غَدَوْنَ لَهَا قَتَبٌ وَغَرْبٌ إِذَا مَا أُفْرِغَ أَنْسَحَقًا
وَحَلَفَهَا سَائِقٌ يَحْدُو إِذَا خَشِيَتْ منه الْعَذَابُ تَمُدُّ الصُّلْبَ وَالْعُنُقَا
وَقَابِلٌ يَتَغَنَّى كُلَّمَا قَدَرَتْ على الْعِرَاقِي يَدَاهُ قَائِمًا دَفَقًا
يُجِيلُ فِي جَدُولٍ تَحْبُو ضَفَادِعُهُ حَبَوَ الْحَوَارِي تَرَى فِي مَائِهِ نُطْقًا
يَخْرُجْنَ مِنْ شَرِبَاتٍ مَاوَهَا طَجَلُ على الْجُدُوعِ يَخْفَنَ الْغَمُّ وَالْغَرَقَا^(٩٥)

والشعراء في مثل هذا الموضع لا يهتمون بوصف بساتين النخيل اهتمامهم بوصف الناقة السانية^(٩٦)، وإنما يُشيرون إليها بإيجازٍ كقول ليبد بن ربيعة^(٩٧):

كَأَنَّ دُمُوعَهُ غَرْبًا سُنَانَةً يُجِيلُونَ السَّجَالَ عَلَى السَّجَالِ
إِذَا أَرَوْا بِهَا زُرْعًا وَقَضْبًا أَمَالُوهَا عَلَى خُورٍ طَوَالِ

وفي الشعر الجاهلي تكثر الاشارات إلى «جَنَّات النخيل» في أنحاء مختلفة من الجزيرة العربية، كجَنَّة يثرب في قول امرئ القيس^(٩٨):

(٩٣) انظر: ديوان امرئ القيس، ص ٣٤٥، وديوان علقمة الفحل، ص ٥٣-٥٦، وديوان زهير ص ٤١-٤٤، وديوان بشر بن أبي خازم ص ١٣-١٤، وديوان ليبد ص ٧٤، ١٢١-١٢٣.

(٩٤) زهير بن أبي سلمى: الديوان ص ٤١-٤٤.

(٩٥) الغَرْب: الدلو، المَقْتَلَة: المَذْلَلَة جنة سُحُفًا: نخلاً ذا سُحُفٍ أي بُعْد، وإذا طالت النخلة فهي سَحُوق، وأصل الجنة البستان، ويعلمها هاهنا: النخيل. تَمْطُو: تَمُدُّ، انسَحَقَ: انصب، القَابِل: الذي يتلقى الدلو، العراقي: خشبنا الدلو، نَطَقَ: الطَّرَاق، الشَّرِبَات: حياض تُخْفَر في أَصُول النخل، طَجَل: كدر.

(٩٦) انظر: أنور أبو سويلم: الإبل في الشعر الجاهلي، دار العلوم، الرياض ١٩٨٣ م، ج ١ ص ٥٠ وما بعدها.

(٩٧) ديوان ليبد بن ربيعة، ص ٧٤.

(٩٨) امرؤ القيس بن حجر الكندي: الديوان، حققه: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر ١٩٦٤ م، ص ٤٣.

عَلَوْنَ بِأَنْطَاكِيَّةٍ فَوْقَ عِقْمَةٍ كَجَرْمَةٍ نَخْلٍ أَوْ كَجَنَّةٍ يَشْرِبُ

وقول بشر بن أبي خازم الأسدي (٩٩):

- وَالْمَانِحِ الْمَائَةِ الْهَجَانِ بِأَسْرِهَا تُزْجِي مَطَافِلَهَا كَجَنَّةٍ يَشْرِبُ

وقول بشر أيضا (١٠٠):

وَأَوْهَبَ لِلْكُومِ الْهَجَانِ بِأَسْرِهَا تُسَاقُ جَمِيعاً مِثْلَ جَنَّةٍ يَشْرِبُ

ونخل ابن يامن والشَّطِّ في قول الأعشى (١٠١):

- فَلَمَّا اسْتَقَلَّتْ قَلْتُ نَخْلَ ابْنِ يَامِنٍ أَهْنُ أُمِّ اللَّاقِ تُسْرِبَتْ يَتْرَبُ

طَرِيقُ وَجَبَّارٍ رَوَاءَ أَصُولِهِ عَلَيْهِ أَبَايِلُ مِنَ الطَّيْرِ تَنْعَبُ

- كَانَ نَخِيلَ الشَّطِّ غِبَّ حَرِيقِهِ مَايَمُ سُودٌ سُلِبَتْ عِنْدَ مَايَمِ

ونخل زارة في قول أوس بن حجر (١٠٢):

وَكَأَنَّ طُغْنَ الْحَيِّ مُذْبِرَةً نَخْلُ بِزَارَةِ خَمْلِهِ السَّعْدُ

وغراس ابن مُعْنَق، ونخل الأعراض وشوكان في قول امرئ القيس (١٠٣):

- إِذَا زُجِرَتْ أَلْفَيْتَهَا مُشْمَعَلَّةً تُنِيفُ بِعَذْقٍ مِنْ غِرَاسِ ابْنِ مُعْنَقٍ

- وَحَدَّثَ بَأَنَّ زَالَتْ بَلِيلُ حُومِهِمْ كَنَخْلٍ مِنَ الْأَعْرَاضِ غَيْرِ مُنْبَقٍ

- أَوْ مَا تَرَى أَطْعَانَهُنَّ بَوَاكِراً كَالنَّخْلِ مِنْ شَوْكَانٍ حِينَ صِرَامٍ

(٩٩) بشر بن أبي خازم الأسدي: الديوان، حقق: عزة حسن، دار الثقافة، دمشق ١٩٦٠ م ص ٣٩.

(١٠٠) بشر بن أبي خازم: الديوان، ص ٢٠٠.

(١٠١) الأعشى الكبير، ميمون بن قيس: الديوان، حققه: محمد محمد حسين، المكتب الشرقي، بيروت (د.ت) ص ٢٣٧ و ١٦٣.

(١٠٢) أوس بن حجر: الديوان، طبعة دار صادر، بيروت ١٩٦٧، ص ٢٢.

(١٠٣) امرؤ القيس: الديوان، بالترتيب ص ١٦٩، ١٦٨، ١١٥.

ونخل ملهم في شعر طرفة بن العبد والمرقس الأكبر (١٠٤):

- تَطَلُّ نِسَاءَ الْحَيِّ يَعْكِفْنَ حَوْلَهُ يَقْلُنَّ عَسِيبٌ مِنْ سَرَارَةِ مَلْهَمَا
- بَلْ هَلْ شَجَّتْكَ الظُّغْنُ بِأَكْرَهُ كَأَنَّ النَّخْلَ مِنْ مَلْهَمِ

ونخل بيسان في قول أبي دؤاد الإيادي (١٠٥):

نَخَلَاتٌ مِنْ نَخْلٍ بَيْسَانَ أُنْعَدَ نَ جَمِيعاً وَنَبْتُهُنَّ تُؤَامُ
ونخيل محلم في قول بشر بن أبي خازم (١٠٦):

كَأَنَّ حُمُولَهُمْ لَمَّا اسْتَقَلُّوا نَخِيلٌ مُحْلَمٍ فِيهِ أَنْجَنَاءُ
ونخيل محلم وهجر والصفاء في قول لبید بن ربیعة (١٠٧):

- أَوْ بَارِدُ الصَّيْفِ مَسْجُورٌ مَزَارِعُهُ سُودُ الذَّوَائِبِ بِمَا مَتَّعَتْ هَجْرُ
- نَخْلٌ كَوَارِعُ فِي خَلِيجٍ مُحْلَمٍ حَمَلَتْ فَمِنْهَا مُوقِرٌ مَكْمُومُ
- فَرَحْنُ كَأَنَّ النَّادِيَاتِ مِنَ الصَّفَا وَمَذَارِعُهَا وَالْكَارِعَاتِ الْحَوَامِلَا

ونخيل سُمَيْخَةَ وَخَبِيرَ وَابْنِ دَغْشِ فِي شَعْرِ عُلُقَمَةَ وَامْرِئِ الْقَيْسِ وَالطُّفَيْلِ الْغَنَوِيِّ وَعَبِيدِ السَّلَامِيِّ وَحَاتِمِ الطَّائِي (١٠٨).

(١٠٤) انظر طرفة بن العبد، الديوان، مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة ١٩٥٨، ص ١٤١ و ٩٩ والمفضل بن يعلى الضبي (ت ١٧٠ هـ): المفضليات، تحقيق: عبدالسلام هارون، وأحمد محمد شاكر، دار المعارف بمصر ١٩٧٩ م ص ٢٣٨.

(١٠٥) الأصمعي، عبدالملك بن قريب (٢١٦ هـ): الأصمعيات، تحقيق: عبدالسلام هارون، وأحمد محمد شاكر، دار المعارف بمصر ١٩٧٦ م ص ١٨٦.

(١٠٦) بشر بن أبي خازم: الديوان، ص ٢.

(١٠٧) لبید بن ربیعة العامري: الديوان، حققه، إحسان عباس، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت ١٩٦٢ م، ص ٥٩ و ص ١٢٠ و ص ٢٤٢.

(١٠٨) انظر قول علقمة الفحل، ديوانه ص ٨٦:
عَثَاكِلِ عَذْقٍ مِنْ سُمَيْخَةَ مُرْطِبِ
وقول امرئ القيس: ديوانه ص ٤٨
عَثَاكِلِ قَبْرِ مِنْ سُمَيْخَةَ مُرْطِبِ

إنَّ الحديثَ عن هجرة الطَّعائن يتبعه الحديث عن الاستقرار المُتمثِّل بِجَنَّات النَّخيل ، والماء المتفَجِّر من أعماق العُيُون يريده الشعراء متفَجِّراً من أعماق الأرض في زراعة دائمة مستقرَّة ، بِخاصَّة زراعة النخيل ، التي تُشعِرُهُم بِالثَّبَات والاستقرار. الطعن تَقَرَن بالنخيل ، والدُمُوع تُسَفِّح على المرأة المُخَصَّبة صاحبة الطعن ، والماء يَسْفَح من أجل جَنَّات النخيل ، والنخل في أبيات لبيد «خور» إبل غزيرة اللَّبَن . فهل يَسْفَح الشعراء دموعهم من أجل النخيل وما يُمثِّله من حياة خصبة مُستقرَّة .

القوم يَرْحَلُونَ في الصحراء العربية - غالباً - بحثاً عن الماء والمرعى ، والنَّخْل والقُضْب والزَّرْع تَمَثَّل هذا الماء وهذا المرعى ، فهل الدموع التي تُشبه غرب السَّنَةِ تُسَفِّح من أجل أشجار النخيل وحياة الزَّرْعَة ؟ هذا ما اعتقده ، فالشاعر الجاهلي يبكي حياة الضِّيَاع والتَّنَقُّل والجَدْب وَيَشُدُّ الاستقرار والأمن والحَبَّ والخِصْب .

(ج) النخلة والناقة

صُورَةُ الناقة والنَّخْلَة مُتَمَازِلَتَان في نخيلة الجاهلي تماثلاً عجبياً ، وهذا التَّمَاثُل جعلهم يُطَلِّقُونَ على النخلة مفردات الناقة فيقولون «نخلة حائلاً» إذا لم تُحْمَل^(١٠٩) ، و«نخلة خَوَّارَة» إذا كانت كثيرة الحَمْل^(١١٠) ، و«نخلات غُلْباً شَوَامِذ» إذا كانت غِلَظاً شَائِلَة السَّعْف^(١١١) ، و«نخلة عَيْطَاء» إذا كانت طويلة^(١١٢) .

وقول الطفيل الغنوي : ديوانه ص ٢٤

نَجْرُ أَشْأَاءٍ مِنْ سُمَيْحَةٍ مُرْطَبٍ

ونخل خير في قول عبيد بن عبد العزيز السلامي : قصائد جاهلية نادرة ، ص ١٣٠

بَذْكَارَةِ عَيْطَاءٍ مِنْ نَخْلٍ خَيْرٍ

ونخل ابن دُعَش في قول حاتم الطائي : ديوانه ، ص ٢٨٢ .

مَوَاقِيرُ مِنْ نَخْلٍ ابْنُ دُعَشٍ مُكَفَّفُ

(١٠٩) السجستاني : كتاب النخل ص ٨٩ .

(١١٠) السجستاني : كتاب النخل ص (٧٠) وديوان لبيد ص ٧٤ واللسان ، مادة (خور)

(١١١) ديوان لبيد ص ٦٠

(١١٢) عبيد بن عبد العزيز - انظر : قصائد جاهلية نادرة ، ص ١٣٠ .

وأطلقوا على الناقة أسماء النخلة مثل: البُهْزُرة^(١١٣)، والبُهْزُرة^(١١٤)، والعِشَّة^(١١٥) والبُصَاق^(١١٦).

وسَمَوْا ذَنْبَ الناقة عِسيّاً، والعِسيبُ جزءٌ من النخلة، قال طرفة^(١١٧):
كَأَنَّ جَنَاحِي مَضْرَجِي تَكْنَفَا حِفَافِيهِ شُكَا فِي الْعِسيبِ بِمِسْرَدٍ
وقال النابغة^(١١٨):

وتُلَوِي بِرِيَّانِ الْعِسيبِ ثَمَرُهُ عَلَى فَرْجٍ مَحْرُومِ الشَّرَابِ مُجَدِّدٍ
وأطلقوا على صغار الإبل اسم الشَّكِير وهي صغار النخل^(١١٩). ويُكثِّرون من ذكر فُحْلٍ
النخيل أو الفُحْل وكأنهم يقصدون حيواناً حقيقياً^(١٢٠).
وفي قول الراجز^(١٢١):

تَأْبِرِي يَا خَيْرَةَ الْفَسِيلِ
تَلْقَحِي مِنْ حَنْدٍ فَشُولِي
تَغْلِيْبُ لِلصِّفَاتِ الْحَيَوَانِيَةِ عَلَى الصِّفَاتِ النَّبَاتِيَّةِ، وكأنَّه يَتَحَدَّثُ عَنْ نَاقَةٍ وَيَسْتَخْدِمُ
مصطلحاتها: تَلْقَحِي - شُولِي.

ولعل الناقة هي أقرب الأشياء في ذهن الجاهلي من النخلة، لأنها العِمْلَةُ التي يَمْلِكُ،

(١١٣) البُهْزُرة: الناقة العظيمة الجسمية الموقرة من البهزرة وهي النخلة العظيمة. اللسان، مادة (بهز).

(١١٤) البُهْزُرة: الناقة الصفيّة على التشبيه بالنخلة كثيرة الحمل. اللسان، مادة (بهز).

(١١٥) العِشَّة: الناقة الدقيقة المهزولة، وهي النخلة الصغيرة الرأس القليلة السعف. اللسان، مادة (عش).

(١١٦) بُصَاق الإبل: خيارها، والبُصَاق جنس من خيار النخل اللسان، مادة (بصق).

(١١٧) ديوان طرفة، ص ١٤.

(١١٨) ديوان النابغة، ص ١٦٢.

(١١٩) انظر: ديوان زهير ص ٢٥١.

(١٢٠) انظر اللسان مادة (فحل).

(١٢١) أبو حاتم السجستاني: كتاب النخل، ص ٧٠.

ودُرُّهُمَا غذاؤه الأساسي، وكلاهما رمزٌ للصحراء وتحملُ المهجير، وكلاهما يتميزُ ذكورهما عن إناثهما، ويحتاجان لمساعدته في التلقيح؛ لذلك أكثر الشعراء من تشبيه النوق بالنخل، قال الأعشى (١٢٢):

- هو الواهبُ المائَة المِصْطَفَا
- هو الواهبُ المائَة المِصْطَفَا
- ترى الأدمَ كالجبارِ والجرد كالقنا
- هو الواهبُ الكومَ الصفايا لجاره
ة كالنخل زَيْنَها بالرجن
ة كالنخل طاف بها المجترم
موهبةً من طارفٍ ومتلد
يُشَبَّهَنَ دوماً أو نخيلاً مكمماً

وقال لبید (١٢٣):

ويوماً من الدُّهْمِ الرَّغَابِ كأنها
أشَاءَ دَنَا قِنَوَانُهُ أو مجادلُ
وقال امرؤ القيس (١٢٤):

فأقولُ إنَّ الحَيَّ أعجَبَهُم
دُهْمٌ تَسَاقُ كجُدَّةِ الغرسِ
قال زهير (١٢٥):

فإنَّ تَكُ صِرْمَةً أُخِذَتْ جَهَاراً
كغرسِ النخلِ أزرَهُ الشَّكِيرُ
وقال ابو دؤاد الإيادي (١٢٦):

وإذا ما فَجِئَتْهَا بَطْنٌ غَيْبٍ
قلتُ نخلٌ قَدْ حَانَ مِنْهَا صِرَامُ
وقال عدي بن زيد (١٢٧):

(١٢٢) دوان الأعشى الكبير ص ٧١، ٨٩، ٢٤٣، ٣٤٧.

(١٢٣) ديوان لبید بن ربیع، ص ٢٦٠.

(١٢٤) ديوان امرؤ القيس، ص ٢٤٧.

(١٢٥) ديوان زهير، ص ٢٥١.

(١٢٦) الأصمعيات، ص ١٨٨.

(١٢٧) ديوان عدي بن زيد، ص ٥٥.

والذَّهْمُ شُعْتُ الذُّرَا سَوْدَاءُ تُشَبِّهُهَا مَأْوَى مِنْ صَفَا شَبَعَانَ جَبَّارًا
وقال لبيد (١٢٨):

يَوْمَ أَرْزَاقُ مَنْ يَفْضُلُ عُمُ مُوسَقَاتُ وَخُفْلُ أَبْكَارُ
فَاجِرَاتُ ضُرُوعِهَا فِي ذُرَاهَا وَأَنَاضُ الْعَيْدَانُ وَالْجَبَّارُ

ولا شك أن التركيز على غَزَاة التَّاجِ وأحتفال الضُّرُوعِ باللَّيْنِ والإشارة إلى العُدْرِيَّةِ في قوله «أبكار» كل ذلك يؤيد ما نذهب إليه من أن الشاعر الجاهلي تسيطر على ذهنه فكرة الأنوثة والخصوبة الجنسية والخير عندما يذكر النخلة؛ لذلك أطلقوا على النخلة اسم «الخصبة» (١٢٩) ولذلك كانت النخلة «ضروعها في ذراها» و«حان منها صرام» و«طاف بها المجترم».

هي إشارات إلى تميز النخلة بروح حيوانية جاءت متصلة برؤاس موروثة قديمة لها علاقة بفكرة الإلقاح والإخصاب والتكاثر.

وعندما يذكر الشعراء ذنب الناقة الخطار الذي يتدلَّى على أنسائها، أو بين حاذيها يشبهونه بمرجون النخلة المتهدل، أو يقنو النخلة المتدلي.

قال علقمة الفحل (١٣٠):

كَأَنَّ بِحَازِيهَا إِذَا مَا تَشَدَّرْتُ عَشَاكِيلَ عِذْقٍ مِنْ سُمَيْحَةٍ مُرْطَبٍ
وقال المتلمس (١٣١):

كَأَنَّ عَلَى أَنْسَائِهَا عِذْقُ خَصْبَةٍ تَدَلَّى مِنَ الْكَافُورِ غَيْرِ مُكَمَّمٍ
وقال الأعشى (١٣٢):

تَلْوِي بَعِذْقٍ خِصَابٍ كُلَّمَا خَطَرْتُ عَنْ فَرْجٍ مَعْقُومَةٍ لَمْ تَتَّبِعْ رُبْعَا

(١٢٨) ديوان لبيد بن ربيعة، ص ٤١ - ٤٢.

(١٢٩) ديوان الأعشى، ص ٨٩، ولسان العرب، مادة «خصب» وديوان المتلمس ص ٢١٠.

(١٣٠) ديوان علقمة، ٨٦.

(١٣١) ديوان المتلمس الضبي، ص ٢١٠، وهو في ديوان بشر بن أبي خازم، ص ١٩٦.

(١٣٢) ديوان الأعشى، ص ١٠٥.

وقال النابغة (١٣٣):

وتُلَوِي بَرِيَّانَ الْعَسِيبِ ثَمَرُهُ عَلَى فَرْجٍ مَحْرُومِ الشَّرَابِ مُجَدِّدٍ
ولا شكَّ أَنَّ ذَنْبَ النَّاqةِ جَاءَ فِي صُورَةِ قِنَوِ النَّخْلَةِ الَّذِي يَحْمِي «فَرْجَ النَّاقَةِ» وَيُعِيدُهُ مِنَ
العُقْمِ، وَيُرِيدُ لَهُ اسْتِمْرَارَ الْحَيَاةِ وَالْخُصُوبَةِ وَالتَّكَاثُرِ.

والإشارة الى حَاذِي النَّاقَةِ وهما ما استقبلك من الفخذين وَأَنْسَاءِ النَّاقَةِ وهي عُروُقٌ تَحْرِي
فِي أَفْخَاذِ النَّاقَةِ، إِمَارَاتٌ تُتَّصِلُ بِفِكْرَةِ الْإِخْصَابِ، وَقَدْ أَشَارَ الْأَعْشَى صِرَاحَةً أَنَّ الْعِذْقَ يَحْمِي
«فَرْجَ مَعْقُومَةٍ» وَأَشَارَ النَّابِغَةُ إِلَى أَنَّ عِذْقَ النَّخْلَةِ يَمُرُّ عَلَى «فَرْجِ مَحْرُومِ الشَّرَابِ» وهما إشارتان
بِالْعِنَا الدَّلَالَةِ عَلَى فِكْرَةِ الْجِنْسِ وَالتَّكَاثُرِ وَالْخُصُوبَةِ (١٣٤).

أَمَّا عَرَقُ النَّاقَةِ الْمُتَرَاكِمِ عَلَى أَرْفَاعِهَا وَجِلْدُهَا فَيُشَبِّهُ الرُّبَّ الْمُعْتَدَّ مِنْ ثَمَرِ النَّخِيلِ، وَهُوَ
تَشْبِيهِ مَكْرَرٌ فِي الشَّعْرِ الْجَاهِلِيِّ (١٣٥). اسْتَدْعَاهُ رَمُوزَ النَّخْلَةِ، وَكَأَنَّهُمْ يَرِيدُونَ أَنْ يَغْمُرُوا جَسَدَ
مَرَاكِبِهِمْ بِـ «شَجَرَةِ الْحَيَاةِ» وَيَرِيدُونَ أَنْ يَبَارِكُوهَا بِمَعْنَى الْحَيَاةِ الدَّائِمَةِ وَالْخُصُوبَةِ الْمُسْتَمِرَّةِ وَالْخَيْرِ
الْمُطْلَقِ.

(د) النخلة والفرس

يَلْتَفَتُ الشَّعْرَاءُ الْجَاهِلِيُّونَ إِلَى أَجْزَاءِ مُحَدَّدَةٍ مِنَ النَّخْلَةِ عِنْدَمَا يَصِفُونَ خَيْلَهُمْ، فَيَذْكُرُونَ
جِدْعَ النَّخْلَةِ، وَسَعْفَهَا وَنَوَاهَا. وَيَأْتِي تَشْبِيهِ عُتْقِ الْفَرَسِ بِجِدْعِ النَّخْلَةِ الطَّوِيلَةِ لَافِتًا فِي الشَّعْرِ
الْجَاهِلِيِّ لِكثْرَةِ دَوْرَانِهِ عَلَى أَلْسِنَةِ الشَّعْرَاءِ، قَالَ الْأَعْشَى (دِيَوَانُهُ ص ٧١، ٨٩، ٣٣٥).

- سَمًا بَتَلِيلٍ كَجِدْعِ الْخِصَا	بِ حُرِّ الْقَذَالِ طَوِيلِ الْعُسْنِ
- وَكُلِّ كُمَيْتٍ كَجِدْعِ الْخِصَا	بِ يَرْدِي عَلَى سَلِطَاتٍ لُثْمِ
- بِمَشْدَبٍ كَالْجِدْعِ صَا	لَكَ عَلَى تَرَائِبِهِ خِصَابُهُ

(١٣٣) دِيَوَانُ النَّابِغَةِ الذِّبْيَانِي، ص ١٦٢.

(١٣٤) يرى مصطفى ناصف أَنَّ النَّاقَةَ أَشْبَهَ الْأَشْيَاءَ بِالْأُمُومَةِ وَلِذَلِكَ اقْتَرَنَتْ بِالنَّخْلَةِ فِي أَذْهَانِ الْعَرَبِ. انْظُرْ: قِرَاءَةُ ثَانِيَةِ
لِشَعْرَانَا الْقَدِيمِ، دَارُ الْأَنْدَلُسِ، بَيْرُوتِ ١٩٨١، ص ٩٩.

(١٣٥) دِيَوَانُ الْمُتَلَمِّسِ، ص ١٨٥، وَدِيَوَانُ أَوْسِ بْنِ حَجَرٍ ص ٦٧، وَدِيَوَانُ عَتْرَةِ بْنِ شَدَادٍ ص ٢٠٤ وَدِيَوَانُ زُهَيْرٍ
ص ٣١٦ وَ٢٩٦، وَدِيَوَانُ الْأَعْشَى ص ٣٢٣ وَدِيَوَانُ بَشْرِ ص ١٩٨.

وقال طرفة (١٣٦):

وَأَنَافَتُ بِهَوَادٍ تُلْعُ كَجُدُوعٍ شُدِّبَتْ عَنْهَا الْقُشُرُ

وقال دريد بن الصمة (١٣٧):

يَقُوتُ طَوِيلَ الْقَوْمِ عَقْدُ عِذَارِهِ مَنِفٌ كَجِذْعِ النَّخْلَةِ الْمُتَجَرِّدِ

وقال عدي بن يزيد: (١٣٨)

لَهُ عَنقٌ مِثْلُ جِذْعِ السَّحْوِ قِ وَأُذُنٌ مُصَعَّنَةٌ كَالْعَلَمِ
وقال زهير بن مسعود الضبي (١٤٠):

مُدْفَقَةُ الْمُتَنِينِ يَنْمِي بِهَا هَادٍ كَجِذْعِ النَّخْلِ يَعْجُوبُ

وقال امرؤ القيس (١٤١):

- لَهُ جُؤْجُؤٌ حَشْرُ كَأَنَّ لِحَامَهُ
- لَهُ عَنقٌ كَالجِذْعِ شُدِّبَ لَيْفُهُ
- وَمُسْتَفْلِكُ الدَّفْرَى كَأَنَّ عَنَانَهُ
يُعَالَى بِهِ فِي رَأْسِ جِذْعٍ مُشَدَّبٍ
إِذَا مَا دَنَا قِنَوَانُهُ ثُمَّ أَبْسَرَ
وَمُثَنَاتُهُ فِي رَأْسِ جِذْعٍ مُشَدَّبٍ

وقال عبيد بن الأبرص (١٤١):

وَالْخَيْلُ عَاكِفَةٌ عَلَيْهِ كَأَنَّهَا سَحْقُ النَّخِيلِ نَأَتْ عَنِ الْجُرَامِ

وقال لبيد (١٤٢):

- بَسَرْتُ نَدَاهُ لَمْ تَسْرَبْ وَخُوشُهُ
- أَسْهَلْتُ وَأَنْتَصَبْتُ كَجِذْعٍ مُنِيفَةٍ
بَغَرَبٍ كَجِذْعِ الْهَاجِرِيِّ الْمَشَدَّبِ
جَرْدَاءٍ يَحْصُرُ دُونَهَا جُرَامُهَا

(١٣٦) ديوان طرفة، ص ٧٠.

(١٣٧) ديوان دريد بن الصمة، ص ٥١.

(١٣٨) ديوان عدي بن زيد، ص ١٦٩.

(١٣٩) قصائد جاهلية نادرة، ص ٩٥.

(١٤٠) ديوان امرؤ القيس، ص ٣٨٥، ٢٦٧، ٤٨.

(١٤١) ديوان عبيد بن الأبرص، ص ١٢٣.

(١٤٢) ديوان لبيد بن ربيعة، ص ١٢، ٣١٦.

وقال الطفيل الغنوي (١٤٣):

يُرَادَى عَلَى فَأْسِ اللَّجَامِ كَأَنَّمَا يُرَادَى بِهِ مِرْقَاةٌ جِذْعٍ مُشْدَبٍ

وقال عبدالله بن سلمة (١٤٤):

وَلَقَدْ غَدَوْتُ عَلَى الْقَيْصِ بِشَيْظَمٍ كَالْجِذْعِ وَسَطَ الْجَنَّةِ الْغُرُوسِ

وقال المفضل النكري (١٤٥):

تَشُقُّ الْأَرْضُ شَائِلَةَ الدُّنَابِ وَهَادِيهَا كَأَنَّ جِذْعَ سَحُوقٍ

وقال أبو دؤاد الإيادي (١٤٦):

- كَأَنَّ هَادِيَهُ جِذْعٌ بِرَأْيِهِ مِنْ نَخْلٍ مَذْوَدٌ فِي بَاقٍ مِنَ الشَّدْبِ
- وَهَادٍ تَقَدَّمَ لَا عَيْبَ فِيهِ كَالْجِذْعِ شُدْبٍ عَنْهُ الْكَرْبُ

واضح أنهم يؤكدون صفة المألوسة والطول والهذاية في العنق، أو يرمزون به إلى الشمم والعزّة، وهذه الصفات رأوها في النخلة ذات الجذع الأملس المشدّب من الكرب والليف والقشر، التي نأت عن جرامها بحيث يكلّ المرتقون دون الوصول إلى رأسها.

وهي دائماً متعالية، سامقة، تتأبى على مُريديها، ومن ثمّ كثر وصف النخل بالفاظ تدلّ على الشموخ والعزّة مثل: الشّم والسحقّ والعَمّ والرّقّال والقرواح والعيدان والطوال.

والجذع يرمز إلى القوّة والصّلابيّة؛ لذلك كان تصليب الأعداء إلى جذوع النخل المشهورة بقوّتها وشِدَّتْها من الأمور التي أشار إليها الذّكر الحكيم (١٤٧).

وجذع النّخلة يرتبط في وجدان المجتمع بمخاض مريم البتول، وميلاد عيسى المسيح (١٤٨).

(١٤٣) ديوان الطفيل الغنوي، ص ٢٨.

(١٤٤) المفضليات، ص ١٠٦.

(١٤٥) الأصمعيات، ص ٢٠٣.

(١٤٦) غوستاف فون غرنايوم: دراسات في الأدب العربي، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٥٩، ص ٢٨٥، ٢٩٢.

(١٤٧) قال تعالى: «وَأَصْلَبْنَكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ» طه، آية ٧١.

(١٤٨) قال تعالى: «فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ» مريم، آية ٢٣.

وبناء على ذلك أعتقد أن الشعراء قد رَمَزُوا من هذا التشبيه إلى فكرة الخصوبة والحياة التي أرادوها لأفراسهم، وفكرة الهداية في غمرة الوغى التي لا يعلمون نتائجها، والانتصار الشامخ.

ويأتي تشبيه شعر الفرس بالسعف من الصور النادرة في الشعر الجاهلي، قال امرؤ القيس (١٤٩):

وَأَرْكَبُ فِي الرَّوْعِ خَيْفَانَةً كَسَا وَجْهَهَا سَعْفٌ مُنْتَشِرٌ

وإذا طال شعر الفرس وغطى عينيها لم تكن كريمة (١٥٠)، لكن الشاعر لم يقصد العتق والكرم، وإنما استحضّر في ذهنه صورة المرأة ذات الشعر المُتَسَرِّل، وصورة النخلة ذات السعف المتهدل، وكلاهما يعني الخصوبة لذلك جاءت صورة الفرس مرتبطة بفكرة الخصوبة الأنثوية، ويؤيد ذلك أن الأبيات اللاحقة تبدو مُغازلة للأنثوة، قال (١٥١):

هَآ ذَنْبٌ مِثْلُ ذَيْلِ الْعُرُوسِ تَسُدُّ بِهِ فَرْجَهَا مِنْ دُبُرٍ
لَهَا عُذْرٌ كَقُرُونِ النِّسَاءِ رُكْبَنٌ فِي يَوْمٍ رِيحٍ وَصَرٍّ

وذيل الفرس يتراءى في ذهن الشاعر الجاهلي كسعف صغار النخل الكثيف، قال الطفيل الغنوي (١٥٢):

وَأَذْنَابُهَا وَخَفَتْ كَأَنَّ ذُيُوهَا تَجَرُّ أَشْءًا مِنْ سُمَيْحَةٍ مُرْطَبٍ

وكون الأشياء مُرْطَباً إشارة إلى الخصوبة أيضاً.

ويُشَبِّهون امتداد جسد الحصان وانجراده من الشعر وضُمُوره بعسيب النخل، وهو جريد النخل عندما يُزال عنه الخوص، قال المرقش الأصغر (١٥٣):

(١٤٩) ديوان امرئ القيس، ص ١٦٣.

(١٥٠) ابن طَبَّاطِبا العاري، محمد بن أحمد (ت ٣٢٢ هـ): عيار الشعر، تحقيق: طه الحاجري، شركة فن الطباعة القاهرة ١٩٥٦ م، ص ٩٩.

(١٥١) ديوان امرئ القيس، ص ١٦٤.

(١٥٢) ديوان الطفيل، ص ٢٤.

(١٥٣) المفضليات، ص ٢٤٢.

غَدَوْنَا بِضَافٍ كَالْعَيْسِبِ مَجْلَلٍ طَوَيْنَاهُ حِيناً فَهُوَ شِرْبٌ مُلَوَّحٌ
وقال مرة بن همام (١٥٤):

لَبَعَثْتُ فِي عُرْضِ الصُّرَاخِ مُفَاضَةً وَعَلَوْتُ أَجْرَدَ كَالْعَيْسِبِ مُشَذَّبَا
وقال المسيب بن علس (١٥٥):

يَهَبُ الْجِيَادَ كَأَنَّهَا عُسْبٌ جَرْدَاءُ طَالَ سَبِيلُهَا الْبَقْلُ
وقال عامر بن الطفيل (١٥٦):

فَمَا أَذْرَكَ الْأَوْتَارَ مِثْلَ مُحَقَّقٍ بِأَجْرَدَ طَاوٍ كَالْعَيْسِبِ الْمُشَذَّبِ

فالعيسب في انجراده وملاسته ومرونيته يشبه جسد الحصان الأملس الضامر المرن، ولم نجد في أشعارهم تشبيه أنثى الخيل بالعيسب؛ لأن العيسب غير مُحَصَّب، ولا يحمل ثمراً، وهو مُذَكَّر اللَّفْظ يناسب فحول الخيل دون سواها.

ويأتي تشبيه نُسُور الخيل (١٥٧) بِقَسْبِ النَّوَى، أو النَّوَى الصُّلْبِ الْمُعْجُومِ - من التشبيهات الغريبة في الشعر الجاهلي، قال سلمة بن الخرشب (١٥٨):

غَدَوْتُ بِهِ تَدَافِعُنِي سَبُوحٌ فَرَأَشُ نُسُورِهَا عَجَمٌ جَرِيمٌ
وقال عقبة بن سابق (١٥٩):

لَهُ بَيْنَ خَوَامِيهِ نُسُورٌ كَنَوَى الْقَسْبِ

(١٥٤) الفضليات، ص ٣٠٣.

(١٥٥) شعراء النصرانية، ص ٣٥٦.

(١٥٦) ديوان عامر بن الطفيل، ص ٢٧.

(١٥٧) التَّنَزُّعُ: لحمه صلبة في باطن الحافر.

(١٥٨) الفضليات، ص ٣٩.

(١٥٩) الأصمعيات، ص ٤١.

وقال علقمة الفحل (١٦١):

سُلَّاءٌ كَعَصَا النَّهْدِيِّ غُلٌّ بِهَا ذُو فَيْثَةٍ مِنْ نَوَى قُرَّانٍ مَعْجُومٌ (١٦١)

صلابة الحوافر في الخيل ضرورية، لأنَّ الظَّلْعَ يَمْنَعُ الخيل من السَّرعَة والانطلاق، وهو عيب يتداركونه بنعالٍ من جلد الإبل كي لا تَلْتُمُهَا الصُّخُورُ الحادَّةُ، وفي الذكر الحكيم (١٦٢) قَسَمَ بالخيل التي تُورِي الشَّرَّ بحوافرها الصُّلبة عندما تَصْطَلِمُ بالصُّوَانِ.

والنَّوى يتضمَّنُ فِكْرَةَ الخصوبة وأصل الحياة، قال أبو حاتم (١٦٣): «إِنَّ النَّخْلَ يُزْرَعُ نَوَى فِي بِلَادِ طِيءٍ» وإلى ذلك أشار الشاعر (١٦٤):

أَعْطَى مِنَ الْفَيْسِيلِ أَوْ أَنْوَائِهِ صَوَادِيًا رَسَتْ عَلَى رُؤَائِهِ

فالنَّوى أصل النَّخْل، وإذا كان الأصل صُلْبًا تأتي فروعه مثله، وقد أدركوا بفطرتهم أَنَّ ثَبَاتَ الْفَرَسِ وبقائه واستمرار حياته مرتبط بَثْبَاتِ نُسُورِهِ وَمَنْعَتِهَا ودوامها، ومن هنا جاء تشبيه النُّسُورِ بالنَّوى.

(هـ) النخلة والحرب

كانت سيادة القبيلة في العصر الجاهلي تعتمد على أمرين أساسيين، ما تملكه من مُحَارِبِينَ أَشِدَّاءَ، وما تملكه من مال، والناقة والنخلة أهم أموالهم وأنفسها، ويكاد يكون «الهيكل الإقتصادي» في شبه الجزيرة العربية أساسه: النِّعَمُ والنَّخْلُ، ومن ثَمَّ كان امتلاك هذين العنصرين يعني القوَّةَ والمنعة والثراء، وهو غاية الفخر، قال أبو دؤاد الإيادي (١٦٥):

بَعْدَمَا كَانَ سَرَبٌ قَوْمِي حِينًا هُمُ النَّخْلُ كُلُّهَا وَالْبَحَارُ

(١٦٥) ديوان علقمة الفحل، ص ٧٤.

(١٦١) السُّلَّاءُ: شوكَة النَّخْلِ شَبَّهَ الْفَرَسَ بِهَا، غُلٌّ بِهَا: أَلْصَقَ بِهَا نُسُورًا، ذُو فَيْثَةٍ: رَجْعَةٌ، قُرَّانٍ: قَرْيَةٌ بِالْيَمَامَةِ، مَعْجُومٌ: مَضَعَتُهُ النَّاقَةُ فَلَمْ يَتَّضِعْ لَصَلَابَتِهِ.

(١٦٢) قال تعالى: «وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا، فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا» سورة العاديات، آية ١-٢.

(١٦٣) أبو حاتم السجستاني: كتاب النخل، ص ٥٢.

(١٦٤) المصدر السابق، ص ٥٩.

(١٦٥) غرنيوم: دراسات في الأدب العربي، ص ٣١٦ (سبق ذكره).

وكان الدِّفاع عن مزارع النخيل يعني الاستمرار في البقاء ومحافظة على الشرف والكرامة، ودفاعاً عن الوجود، قال النابغة الذبياني (١٦٦):

هم منعوا وادي القرى من عدوهم
من الواردات الماء بالقاع تستقي
بزاخية ألوت بليف كأنه
صغار النوى مكنوزة ليس قشرها
هم طردوا عنها بلياً فأصبحت
والنخلة تعني الشرف وكرم المحيد (١٦٨):

- وهل يُنبِت الخطي إلا وشججه
- ولي الأصل الذي في مثله
وتغرس إلا في منابتها النخل
يصلح الأبر زرع المؤتير
وقرن المتلمس الضبعي النخل بالقصور والثراء، قال مخاطباً عمرو بن هند (١٦٩):

ألك السدير وبارق
والقصر ذو الشرفات من
ومرابض ولك الخورنق
سنداد والنخل المبسق (١٧٠)

وفخر الأعشى بقومه الأثرياء الذين يملكون النخيل والزروع والعلف، قال (١٧١):

ألم تر أن العرض أصبح بطنها
نخيلاً وزرعاً نابتاً وفصافصاً

ومن ثم كانت الغارة في العصر الجاهلي تستهدف نهب النعم، وتحريق النخل، أو بعبارة أخرى، القضاء على القوة الاقتصادية للأعداء، وإلحاق الخسائر الجسيمة بأموالهم، وإحراق

(١٦٦) ديوان النابغة، ص ٩٩.

(١٦٧) أعجازها: أصولها، الخناجر: رؤوس النخل، بزاخية: فيها تقاعس لكثرة حملها أو نسبة إلى موضع بالبحرين، العفاء: الوبر، قشرها ليس بطائر: أي متصل بالتمرة لا ينفصل عنها.

(١٦٨) ديوان زهير، ص ١١٥، وديوان طرفة، ص ٦٣.

(١٦٩) شعراء النصرانية، ص ٣٤٦.

(١٧٠) سنداد: وراء الكوفة، المبسق: المستوي المرتفع.

(١٧١) ديوان الأعشى، ص ٢٠١.

مجدهم وعزتهم، والقضاء على حياتهم وغذائهم. قال أوس بن حجر (١٧٢):
 حتى يَلْفَ نخيلهم وزُرُوعهم لَهَبٌ كَنَاصِيَةِ الحِصَانِ الأشَقَرِ
 وقال الأعشى (١٧٣):

وأيامَ حَجَرٍ إِذْ يُحَرِّقُ نخلُهُ نَأْرِنَاكُمْ يَوْمًا بِتَحْرِيقِ أَرْقَمِ
 كَأَنَّ نخيلَ الشَّطِّ غَبَّ حَرِيقِهِ مَا يَتَمُّ سُودًا سُلِبَتْ عِنْدَ مَا تَمُّ
 وقال أيضا (١٧٤):

يَوْمَ حَجَرٍ بِمَا أَزَلَّ إِلَيْكُمْ إِذْ تُذَكِّي فِي حَافَتِهِ الضَّرَامَا
 فَتَرَاهَا كَالْحُشْنِ تَسْفَحُهَا النَّيْ رَأَى سُودًا مُصْرَعًا وَقِيَامَا
 وقال امرؤ القيس في سرعة فرسه (١٧٥):
 سَبُوحًا جَمُوحًا وَإِخْضَارَهَا كَمَعَمَعَةِ السَّعْفِ المُوقِدِ
 وقال طرفة (١٧٦):

أَنْتُمْ نخلٌ نَظِيفٌ بِهِ فَلِذَا مَا جَزَّ نَضَطَرْمُهُ
 وَعَذَارِيكُمْ مُقْلَصَةٌ فِي دَعَاةِ النَّخْلِ تَجْتَرِمُهُ
 وَعَجَائِزٌ مَعًا لَكُمْ تَضَطَّلِي نِيرَانَهُ خَدْمُهُ (١٧٧)

وهي صور مألوفة في العصر الجاهلي، ومن ثم ارتبط سقوط المحاربين في أرض المعركة بسقوط النخل المعضد أو الحُشْب المَصْرَعَة والجُدُوع الهامدة، وقد اختار الله - تعالى - صورة

(١٧٢) ديوان أوس بن حجر، ص ٤٨.

(١٧٣) ديوان الأعشى الكبير، ص ١٧٧.

(١٧٤) ديوان الأعشى، ص ٢٩٧، الحشن: جمع خشناء، وهي الناقة العجفاء.

(١٧٥) ديوان امرئ القيس ص ١٨٧ وديوان عمرو بن معد يكرب ص ١٨٨.

(١٧٦) ديوان طرفة، ص ٧٧.

(١٧٧) المُقْلَصَة: المُشَمَّرَة، الدعاة: رديء الثمر، والدعاة: النخل المتفرق، الخَدَم: الخلاخيل، النيران: للنخل، جَزَّ الثمر: بلغ الجراز وهو صرام النخل.

النخل المنقعر لقبيلة عاد عندما سَقَطُوا جاثمين بعذاب الريح المهلكة، قال تعالى (١٧٨):
﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِي، إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِم رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ، تَزْرَعُ النَّاسَ كَانْتَهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾.

وهذه الصور مكررة في الشعر الجاهلي، قال قيس بن الخطيم (١٧٩):
ونفقَدُوا تسعين من سرَواتِكُم أشباه نخلٍ صُرَعَتْ لِحْنُوبِ
وقال يزيد بن عمرو الطائي (١٨٠):

ألا مَنْ رَأَى قوماً كأنَّ رجالَهُم نَخيلٌ أتاهَا عَاصِدٌ فَأَمَّاهَا
وقال أوس بن حجر (١٨١):

- وَقَتْلَى كِمَثَلِ جُذُوعِ النَخِيلِ تَغَشَّاهُمْ مُسْبِلٌ مُنْهِمِرٌ
- كَانْتَهُم بَيْنَ الشَّمِيطِ وَصَارَةِ وَجُرْثَمَ وَالسَّوْيَانِ خُشْبٌ مُصْرَعٌ

وجسد المقتول الضامر يُشبه عسيب نخلة، قال طرفة (١٨٢):

تَظَلُّ نِساءَ الحَيِّ يَغْكِفْنَ حَوْلَهُ يَقْلَنَ عَسِيبٌ مِنْ سَرَارَةِ مَلْهَمَا

وشعر ناصيته كأنه عُذُوق نخلة، قال المفضل النكري (١٨٣):

قَتَلْنَا الحَارِثَ الوَضَّاحَ مِنْهُمْ فَخَرَّ كَأَنَّ لُتَّةَ العُذُوقِ

وأعضاء القتيل المتناثرة تشبه أصول السَّعَف اليابس، قال عمرو بن الأسود (١٨٤):

(١٧٨) سورة القمر، آية ١٨ - ٢٠.

(١٧٩) ديوان قيس بن الخطيم ص ٦٢.

(١٨٠) ديوان الحماسة ج ١ ص ٣٩٧.

(١٨١) ديوان أوس بن حجر، ص ٣٠، وص ٥٨.

(١٨٢) ديوان طرفة، ص ٢٠٢.

(١٨٣) الأصمعيات، ص ٢٠٢.

(١٨٤) الأصمعيات، ص ٨٠.

وَكَاثِمًا أَقْدَامُهُمْ وَأَكْفُهُمْ كَرَبٌ تَسَاقَطَ مِنْ خَلِيجٍ مُقْعَمٍ
ومرّد هذه التشبيهات الاعتقاد بروح النخلة، التي تحمّد بعد اجتثاثها، والرغبة في قتل
عنصر الإخصاب في العدو، والقضاء على تكاثره.

وَشَبَّهُوا رُؤُوسَ الْأَعْدَاءِ بِالْتَّمْرِ الْيَابِسِ الْمَصْرُومِ الْمُثَوَّرِ، قال ضمرة بن ضمرة^(١٨٥):
حَتَّى صَبَحْتُ عَلَى الشَّقُوقِ بَغَارَةً كَالْتَّمْرِ يُنْثَرُ فِي جِرَابِ الْجُرْمِ
وقال حاجز بن عوف الأزدي^(١٨٦):

وَرَجُلٍ قَدْ لَفَفْتُهُمْ بِرَجُلٍ عَلَيْهِمْ مِثْلُ مَا نَثَرَ الْجَرِيمُ
ومن أدوات المحاربين يشبّهون عقد الرمح بنوى القسب، قال أوس بن حجر^(١٨٧):
أَصَمَّ رُدَيْنِيًّا كَانَ كُعُوبُهُ نَوَى الْقَسْبِ عَرَاصًا مُزَجًّا مُنْصَلَا
وقال حاتم الطائي^(١٨٨):

وَأَسْمَرَ خَطِيًّا كَانَ كُعُوبُهُ نَوَى الْقَسْبِ قَدْ أَرَمَى ذِرَاعًا عَلَى الْعَشْرِ
أو يشبّهون الرمح بالحبل المصنوع من ليف النخلة، قال امرؤ القيس^(١٨٩):
وَمَطَّرَدًا كَرِشَاءِ الْجُرُ مِنْ خُلْبِ النَّخْلَةِ الْأَجْرَدِ

(١٨٥) ابن عبد ربه: العقد الفريد، تحقيق: أحمد أمين، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٨ م، ج ٢ ص ٢٤٨ وهذا البيت يروى أيضا -

والخيل من خلل الغبار خوارج كالتمر الخ

هاشم طه شلاش: شعر ضمرة بن ضمرة النهشلي، مجلة المورد م ١٠ ع ٢ سنة ١٩٨١، ص ١٢٠.

(١٨٦) قصائد جاهلية نادرة، ص ٧٣.

(١٨٧) ديوان أوس بن حجر، ص ٨٣.

(١٨٨) شعراء النصرانية، ص ١٣٢.

(١٨٩) ديوان امرؤ القيس، ص ١٨٨ ومثله تشبيه الغبار بالحبل المصنوع من ليف النخلة، قال المثقب العبدى: (ديوانه، ص ٤٧).

يَنْبَعُهُ فِي إِثْرِهِ وَاصِلُ مِثْلُ رِشَاءِ الْخُلْبِ الْأَجْرَدِ

ومن التشبيهات النادرة، تشبيه فترة الصائد بالفسيل المكَّم، قال الأعشى (١٩٠):
 فَأُورِدَهَا عَيْنًا مِنَ السَّيْفِ رِيَّةً بِهَا بُرءٌ مِثْلُ الْفَيْسِلِ الْمُكَّمِّ
 وتشبيه ريش النعامة المتساقط عند شدّها بالليف الذي يسقطه الأبر عند إلقاح النخلة، قال
 ثعلبة بن صُعير (١٩١):

يَبْرِي لِرَائِحَةٍ يُسَاقِطُ رِيشَهَا مَرَّ النَّجَاءِ سِقَاطَ لَيْفِ الْآبِرِ

(و) النخلة والإنسان العربي

أثارت النخلة خيال الشعراء العرب في العصر الجاهلي بتطاؤها وشموخها وسُمُوها وتعاليلها وعزتها، وصلابة جذعها، وغزارة سَعَفها، ولُيونة كَرَبها، وجمال قَدّها، وحلاوة ثَمَرها، وتميّز ذُكْرانها عن الإناث، وحاجتها إلى التلقيح، وقدرتها على الصمود في وجه سُموم الصّحراء الحارّة، وسَعف الصقيع البارد، فَرَاوُها في صورة امرأة مُعتدلة القامة، أو في صورة فَرَسٍ جميلة مُنتصبة، أو في صورة ناقة غزيرة اللَّبن، أو هُودَجٍ مُزَيَّنٍ مَرْقُومٍ باللّوشي.

وإذا ما سَقَطَ الأعداء مُجْدَلِينَ هامدين في ساحة الوغى تَدَاعَى في أذهانهم صورة النخل المُصْرَعِ غَبَّ حريقٍ أو من آفَةٍ.

وفي جميع الأحوال شكّلت النخلة جوانب من وَجْدَانِ الجاهلي في الرّحلة والحُبّ والحياة والمُعتَقَد والمُوت وموجودات الكون الأخرى.

وقد كشفت الحفريات الأثرية في مناطق مختلفة من الجزيرة العربية عن وَلَعِ العَرَبِ بزراعة النخلة منذ عصور قديمة، واعتمادهم عليها في بناء بيوتهم وصناعة أبوابهم وأدواتهم كالأمشاط والمّوازين والمكايل، ودخولها في رسوماتهم ومَنحوتاتهم (١٩٢).

وحَدَّدَ أبو حاتم السجستاني أشهر واحات النخيل في عصره، مثل: مصر وبيسان وطبرية

(١٩٠) ديوان الأعشى ١٧١.

(١٩١) الفضليات، ص ١٧٨.

(١٩٢) عبدالرحمن الطيب الأنصاري: قرية الفار: صورة للحضارة العربية قبل الإسلام، مطبعة جامعة الرياض ١٤٠٢ هـ، ص ١٧.

والغور، واليمن وعمان، وجبلي طيء، والكوفة، وبغداد، والمدينة ومكة واليمامة وهجر والقطيف واليمامة والطائف وقدك، وقال (١٩٣): ونخل البصرة أظنه مثل نخل الدنيا مراراً.

وأطلق العرب على بعض قراهم وبقاعهم ووديانهم اسم: نخل، ونخلة، ونخيل، تيمناً بهذه الشجرة المباركة، أو لتمييز تلك البقاع بزراعة النخيل (١٩٤).

وصارت بعض بقاعهم مضرباً للأمثال بكثرة الثمر، قال خارجة بن ضرار المري (١٩٥):

فإنك وأسبضاعك الشعر نحونا كمسبضع تمرأ إلى أرض خيبر

وفي أمثالهم (١٩٦):

«كمسبضع التمر إلى هجر»

وعد اليونانيون والرومان شجر النخيل رمزاً للجزيرة العربية، وسموا الشرق الأدنى بلاد النخيل، ومدينة أريحا بفلسطين مدينة النخيل، ومن اسم النخلة أخذت مدينة «تدمر» اسمها (١٩٧).

(١٩٣) أبو حاتم السجستاني، سهل بن محمد (ت ٢٥٠ هـ): كتاب النخل، حققه: إبراهيم السامرائي، دار اللواء، جدة ١٩٨٥ م، ص ٤٤ وما بعدها.

(١٩٤) نخل من منازل بني ثعلبة، ونخلة القصوى لهذيل، والنخيل: ناحية الشام، ونخلة: قرب الكوفة، ويطن نخلة: بين مكة والطائف، وجذع نخلة: قرب مكة، وعين التمر: قرب الكوفة. انظر: ابن منظور، محمد بن جلال الدين الحزرجي (ت ٧١١ هـ): لسان العرب، مطبعة بولاق (د.ت) مادة (نخل).

والبكري، عبدالله بن عبدالعزيز الأندلسي (ت ٤٨٧ هـ): معجم ما استعجم من أسماء البلدان والمواقع، حققه: مصطفى السقا، طبعة عالم الكتب، بيروت (د.ت) مادة (نخل).

وسمي العراق سواداً يلبون السعف الذي في النخل. أنظر، الجاحظ، عمرو بن بحر (ت ٢٥٥): الحيوان، تحقيق عبدالسلام هارون، مط: مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٦٥، ج ٣ ص ٢٤٦ و ٤٤٦.

(١٩٥) الألوسي، محمود شكري: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، دار الكتب العلمية، بيروت (د.ت) ج ١ ص ١٩٢ وتاج العروس، مادة (بضع).

(١٩٦) انظر: أمثال أبي عبيد، ص ٢٩٢، ومجمع الأمثال ج ٢ ص ١٥٣، والمستقصى في أمثال العرب ج ٢ ص ٢٣٣.

(١٩٧) انظر: شوقي عبدالحكيم: موسوعة الفولكلور والأساطير العربية، دار العودة، بيروت ١٩٨٢ م، ص ٦٦٥. ومدخل لدراسة الفولكلور والأساطير العربية، دار ابن خلدون ١٩٧٨ م ص ٥٩. وانظر: قاموس الكتاب المقدس، مكتبة المشعل، بيروت ١٩٨١ م ص ٥٨ و ص ٩٦٤.

وللعرب في النخيل منافع كثيرة:

اسْتَظَلُّوا بِشَمَارِيحِهَا مِنْ وَهَجِ الشَّمْسِ الْمُحْرِقَةِ، وَاعْتَذَوْا بِشَمَرِهَا (١٩٨)، وَعَدُّوهُ «فَاكْهَةً وَغِذَاءً وَشَرَابًا وَحَلْوًى» (١٩٩)، مَثَلُهُمْ فِي ذَلِكَ مَثَلُ الْفُرْسِ، قَالَ ابْنُ وَحْشِيَّةَ (٢٠٠): «كَانَتِ الْأَكَاسِيرُ فِي أَوَانِ الرُّطْبِ يَرْفَعُونَ مِنْ سِمَاطِهِمُ الْحَلْوَى، وَفِي إِبَانِ الطَّلَعِ يَسْتَعْنُونَ عَنِ الْمُسْمُومِ». وَتَدَاوَوْا بَنَوَاهَا وَجَمَّارَهَا وَبَلَّحَهَا (٢٠١).

وعلفوا خيلهم وإبلهم من رَضِيخِ النَّوَى، قَالَ الْمُثَقَّبُ الْعَبْدِيُّ (٢٠٢):

كَسَاهَا تَامِكًا قَرْدًا عَلَيْهَا سَوَادِي الرَضِيخِ مَعَ اللَّجِينِ

وفي الشعر الجاهلي إشارات كثيرة إلى هذا الضرب من العَلَفِ (٢٠٣):

(١٩٨) كان أهل المدينة في عهد الرسول (ﷺ) عامة زادهم الثمر وخبز الشعير.
انظر: ابن إسحق، أبو عبدالله محمد بن إسحق بن يسار (ت ١٥١ هـ): سيرة النبي (ﷺ)، تهذيب: عبد الملك بن هشام الحميري (ت ٢١٨ هـ)، تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد، القاهرة ١٩٦٣ م، ج ٤ ص ١٤٨.

وإذا أَسَنَّتِ النَّاسَ صَنَعُوا مِنَ النَّخْلِ عَصِيدَةً أَوْ خَبْزًا، فَيَأْخُذُونَ مِنْ جَذَعِ النَّخْلَةِ بَعْدَمَا يُجْدُونَ الْجَمَارَ وَيَشْفَقُ، وَيَضْرِبُونَ جَوْفَهُ فَيَتَدَفَّقُ كَهَيْئَةِ الدَّقِيقِ، وَخَبْزُهُ يَسْمَى (النَّبِيَّ). انظر: أبو حاتم السجستاني: كتاب النخل، ص ٩٨.

وفي قول عائشة رضي الله عنها: «لقد رأيتنا مع رسول الله (ﷺ) ومالنا طعام إلا الأسودان» فسرّه أهل اللغة بأنه التمر والماء، ابن منظور، لسان العرب، مادة (سود).

(١٩٩) ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي (ت ٧٥١ هـ): زاد المعاد، المطبعة المصرية (د.ت) ج ٣ ص ١٥٩.

(٢٠٠) ابن وحشية، أحمد بن علي: كتاب النخل، تحقيق: إبراهيم السامرائي مجلة المورد، المجلد الأول، العددان: الأول والثاني ١٩٧١ م ص ٧٠.

(٢٠١) أبو حاتم السجستاني: كتاب النخل، ص ٩٨. وانظر الأحاديث النبوية الشريفة في التداوي بالتمر: عبدالله عبدالرزاق السعيد: الإعجاز الطبي في القرآن الكريم، الدار السعودية للنشر، جدة ١٩٨٥ م، ص ١٧٥ و ٣٤٥ وما بعدها.

(٢٠٢) المثقب العبدى، عائذ بن محسن: الديوان، تحقيق: حسن كامل الصيرفي، معهد المخطوطات العربية، القاهرة ١٩٧١ م، ص ١٧١. الرَضِيخُ: النوى المرضوخ وهو المكسور بالحجر، التامك: السنام المشرف، السوادي: القَتَّ والنَّوَى، قَرْدٌ: مُلَبَّدٌ، اللَّجِينُ: ما تَلَجَّنَ مِنْ بَزَرٍ أَوْ عُلْفٍ.
(٢٠٣) الأعشى الكبير: الديوان ص ٢٢٥.

وأوس بن حجر: الديوان، دار صادر، بيروت ١٩٦٧ م، ص ١٨ والمصدر نفسه ص ١١٢.
ولبيد بن ربيعة، الديوان ص ١٢٢ (بالترتيب).

- بَنَاهَا السَّوَادِيُّ الرَّضِيخُ مَعَ الْخَلَى
- غَيْرَانَةُ كَأَتَانِ الضُّحَلِ صَلْبَهَا
- أَلَّا تَتَّقُونَ اللَّهَ إِذْ تَعْلِفُونَهَا
- دَهْمَاءُ قَدْ دَجَنَتْ وَأَحْتَقَ صَلْبُهَا
وَسَقِيَّ وَإِطْعَامِي الشَّعِيرَ بِمَحْفَدٍ
جَرْمُ السَّوَادِيِّ رَضُوهُ بِمَرْضَاحٍ
رَضِيخَ النَّوَى وَالْعُضَّ حَوَلًا مُجْرَمًا
وَأَحَالٍ فِيهِ الرِّضْخُ وَالتَّضْرِيْمُ

وعلفوا الصَّفايا من الغنم النَّوى أيضاً فَكَثُرَتْ لذلك ألبانها، وصار للنَّوى أسواق مشهورة، قال السجستاني (٢٠٤):

«يُبَاعُ بالبصرة من النَّوى بمالٍ عظيمٍ جداً لا يُضْبَطُ حِسَابُهُ».

واتخذوا من التَّمْرِ والبُسْرِ خمراً وقد يُكْثَرُونَ من الشُّرْبِ في أيام الخريف عند جِداد النخل، وشربهم إِذْ ذَاكَ «الفَضِيخُ»، قال خِدَاش بن زهير (٢٠٥):
«..... أَغَانِيَّ خَرْفٍ شَارِبِينَ بَيْتَرَبَا».

وكان سُكَّانُ الشرق الأدنى القديم يَصْنَعُونَ خمرهم المعروف بالجمعة أو العرقي من بَلَح النخيل، وقد تَسَكَّرَ قُرَى بأكملها مخافة الانزلاق في التفكير في معميات الحياة والموت والفناء (٢٠٦).

وكان التمر عُذَّتُهُمْ في الغزو والغارات (٢٠٧):

(٢٠٤) أبو حاتم السجستاني: كتاب النخل، ص ٥٠.

(٢٠٥) انظر شعر خدش بن زهير العامري - صنعة بجى الجبوري، مجمع اللغة العربية، بدمشق ١٩٨٦، ص ٥٨. يُسَمَّى خَمْرُ التمر «سَكْرًا» انظر: لسان العرب، ماد (سكر) والقرآن الكريم، سورة النخل، آية ٦٧. وروى الإمام مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك أنه قال: لقد خُرِّمَتِ الخمر، وكان عامة خمرهم يومئذ خليط البُسْرِ والتَّمْرِ.

انظر: صحيح مسلم، دار التحرير، القاهرة ج ٦ ص ٨٨ وصحيح البخاري، مطبعة صبيح، القاهرة ج ٧ ص ١٣٧. وانظر أحاديث أخرى تفيد أنهم صنعوا الخمر من التمر، صحيح مسلم ج ٦ ص ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٢. والتويري أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣ هـ): نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب المصرية ١٩٢٥ م. ج ٨ ص ٨٠ وابن قتيبة عبدالله بن مسلم (ت ٢٧٦ هـ): المعاني الكبير، حيدر اباد ١٩٤٩ ج ١ ص ٥١٣.

(٢٠٦) شوقي عبد الحكيم: مدخل لدراسة الفولكلور والأساطير، دار ابن خلدون، بيروت ١٩٨٣ م. ص ٦١-٦٢.

(٢٠٧) انظر خبر عُمر بن الحمام في غزوة بدر. ابن القيم الجوزية: زاد المعاد (المطبعة المصرية) ج ٢ ص ٨٨.

وصنعوا من جريد النخلة وخصوصها الأواني والحُصُران والجُلُل والْحَصَف، قال الأعشى (٢٠٨):

قُلْنَا الصَّلَاحَ فَقَالُوا لَا نَصَالِحُكُمْ أَهْلُ النَّبُوكِ وَعِيرَ فَوْقَهَا الْحَصَفُ
وقال آخر (٢٠٩):

باتوا يُعْشُونَ الْقُطَيْعَاءَ جَارَهُم وَعِنْدَهُمُ الْبَرِيُّ فِي جُلَلٍ دُسمِ
ومن ليف النخلة حشوا الأسيرة وصنعوا الحبال (٢١٠).
واخذوا جذوعها أعمدة لبيوتهم، وإلى ذلك أشار لبيد بن ربيعة (٢١١):

(٢٠٨) الأعشى الكبير: (الديوان، ص ٣٥٩. وقد أشار الشعراء إلى الشواطِب وهن النساء اللاتي يُشَقِّقْنَ الشَّعْفَ ويأخذن قُشُورَهَا ليعملن منها الحُصْرَ، قال قيس بن الخطيم: ديوانه ص ٨٥.

نَرَى قِصْدَ الْمُرَانِ تَهْوِي كَأَنَّهَا تَذُرُّعُ جِرْصَانٍ بِأَيْدِي الشَّوَابِ
ولأنَّ الجلود لا تُصْبِرُ عَلَى الْمَاءِ اسْتَعْدَمُوا الْكَرْبَ، وهو خَيْلٌ مِنْ لَيْفِ النَّخْلَةِ، قال لبيد بن ربيعة: ديوانه ص ٢٩.
فهو كَذَلِو الْبَحْرِيَّ اسْلَمَهَا إِلَهُ غَفْدٌ وَخَانَتْ أَذَانَهَا الْكَرْبَا
وقال عمرو بن الأسود: الأصمعيات ص ٨٠.

وَكَأَنَّهَا أَقْدَامُهُمْ وَأَكْفُهُمْ كَرَبٌ تَسَاقَطَ مِنْ خَلِيجٍ مُفْتَمٍ

وقال عمرو بن معد يكرب: ديوانه ص ١٨٨، والبيت في ديوان امرئ القيس: ص ١٨٨.
وَمُطَرَّدَا كِرْشَاءِ الْجُرُودِ مِنْ حُلْبِ النَّخْلَةِ الْأَجْرَدِ

وقال المثقب العبيدي: ديوانه ص ٤٧.

يَتَبَعُهُ فِي إِثْرِهِ وَأَصِلُ مِثْلُ رِشَاءِ الْحُلْبِ الْأَجْرَدِ

(٢٠٩) أبو حاتم السجستاني: كتاب النخل، ص ٩١. البري: من أجود التمور، والجُلُل: جمع جَلَّة وهي وعاء من جريد النخل.

(٢١٠) كانت بيوت النبي (ﷺ) تسعة سُقُفها من جريد النخل، وكان سريره خشبات مشدودات بالليف. انظر، ابن هشام، عبد الملك بن هشام الحميري (ت ٢١٨ هـ): السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة ج ٢ ص ١٤٣. وانظر: طبقات ابن سعد ج ١ ص ٤٦٦.

(٢١١) ديوان لبيد ص ٤٥، وكان مسجد النبي (ﷺ) مسقوفاً بجذوع النخل، وكان النبي إذا خطب يقوم إلى جذع منها. انظر: السفاريني، محمد الحنبلي: شرح ثلاثيات مسند الإمام أحمد، المكتب الإسلامي دمشق ١٣٨٠ هـ، ج ٢ ص ٣٧١.

وانظر: ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج: صفوة الصفوة، مطبعة الأصيل، حلب، ج ١ ص ٩٨.

غَيْرُ آلٍ وَغُنَّةٍ وَعَرِيشٍ ذَعَدَتْهَا الرِّيحُ وَالْأَمْطَارُ
وصنعوا من جريدها حظائرَ تقي إبلهم لَفَحَ الشَّمَالُ، وصقيع الشتاء، قال
الحادرة (٢١٢):

مُبْطَّحِينَ عَلَى الْكَئِيفِ كَأَنَّهُمْ يَتَكُونُ حَوْلَ جَنَازَةٍ لَمْ تُرْفَعِ
وَعَطُّوا أَجْدَاثَ الْمَوْتِ بِسَعْفِهَا وَجَرِيدِهَا (٢١٣).

وكانت التجارة الخارجية لعرب الجزيرة تعتمد على تصدير التمور، وقد يبيعون التمر
بسعرٍ أعلى من السعر الذي يشترون به القمح المستورد من الشام (٢١٤).

وكانت النخلة من أنفَسِ أموالهم (٢١٥)، يدفعونها مهراً لزوجاتهم، قال أبو مجيب:
شهدتُ نعمان بن سوار زَوْجَ واصل بن حصين الرِّبَعي «حَنَّة بنت عَدْبَس» على أربعين نخلة.
وروي عن هارون الرشيد أنه قال: نَظَرْنَا إِذَا كُلَّ ذَهَبٍ وَفُضَّةٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ لَا
يَبْلُغَانِ ثَمَنَ نَخِيلِ الْبَصْرَةِ (٢١٦).

وكانوا يقضون ديونهم بثمر النخل، قال سويد بن الصامت (٢١٧):

(٢١٢) الحادرة، قطبة بن أوس بن محسن الغطفاني: الديوان، تحقيق: ناصر الدين الأسد، دار صادر. بيروت
١٩٧٣ م، ص ٤٨.

(٢١٣) يرى بعض الفقهاء أنه يستحب وضع السعف الأخضر داخل القبر، وأن يجلّل القبر بالسعف بعد الدفن.
انظر: السُّمُودِي، علي بن عبدالله بن أحمد (ت ٩١١ هـ) وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، تحقيق محمد محيي الدين
عبد الحميد القاهرة ١٩٥٥، ج ٢ ص ١٢٩.

(٢١٤) الكتاني، عبد الحفي بن شمس الأفاق الفاسي (كان حياً سنة ١٣٤٧ هـ): كتاب التراتيب الإدارية والعمالات
والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التي كانت على عهد تأسيس المدينة الإسلامية في المدينة المنورة العلية، طبعة
بيروت (د.ت) ج ٢ ص ٥٢-٥٣.

(٢١٥) قال ابن دريد: سألتُ اعرابياً: ما أموالكم؟ قال: النخل، قلت أين أنتم من غيره؟، فقال: النخلة جذعها ثَمَاءٌ،
وليفها رِشَاءٌ، وكرها صِلاءٌ، وسَعْفُها ضِياءٌ، وفروها إِيَاءٌ، وخبثُها غِذاءٌ.
انظر الراغب الأصفهاني، حسين بن محمد (ت ٥٠٢ هـ): محاضرات الأدباء، المطبعة الشرقية ١٣٢٦ هـ.

(٢١٦) أبو حاتم السجستاني: كتاب النخل، ص ١٠٦ وص ٤٥.

(٢١٧) المصدر السابق، ص ٨٧ والقرواح: النخلة المنجدة، أدين: آخذ الدُّين وأقضيه.

أَدِينُ وَمَا دَنِي عَلَيْكُمْ بَغْرَمٍ وَلَكِنْ عَلَى الشَّمِّ الْجِلَادِ الْقَرَاوِحِ
عَلَى كُلِّ خَوَارٍ كَأَنَّ جُدُوعَهَا طُلَيْنَ بَرْفَتٍ أَوْ بِحَمَاءٍ سَابِحِ

واستخدموا عُسْب النخل في الكتابة^(٢١٨)، قال لبيد بن ربيعة:

مَتَعَوِّدٌ لِحَنٍ يُعِيدُ بِكَفِّهِ قَلَمًا عَلَى عُسْبٍ ذُبُلْنَ وَبَانِ

ومثله قول امرئ القيس بن حجر:

لَنْ طَلَّلَ أَبْصَرْتُهُ فَشَجَانِي كَخَطِّ زُبُورٍ فِي عَسِيبِ يَمَانِ

ووفرت زراعة النخيل العمل لبعض الفلاحين، وكان الرجل يؤجر نفسه لسقي جنات النخيل من البئر بالدُّلُو، على كل دَلُو ثَمَرَةٌ^(٢١٩).

وصار من أهمية زراعة النخيل في عهد النبي (ﷺ) أَنَّ الْعَبْدَ مِنْ حَقِّهِ أَنْ يُكَاتِبَ صَاحِبَهُ عَلَى زِرَاعَةِ عَدَدٍ مِنَ النَّخْلِ مُقَابِلَ عِثْقِهِ^(٢٢٠).

وَوَدُّوا بِالْثَمَرِ الْقَتْلَى، قال أبو حيان^(٢٢١): دِيَّةُ الْعَرَبِيِّ مِائَةُ وَسَقٍ (من تَمَرٍ) وَدِيَّةُ الْهَجِيِّنِ خَمْسِينَ وَسَقًا، وَدِيَّةُ الْمُؤَلَّى عَشْرَةُ أَوْسُقٍ. وكانت العرب تجعل دية المُعَمِّ الْمُخُولَ مِائَةَ بَعِيرٍ، وَدِيَّةُ الْمُؤَلَّى خَمْسَةَ وَعِشْرِينَ بَعِيرًا.

وَجَنَّاتُ النَّخِيلِ فِيهَا جَلَاءٌ لِلْبَصَرِ، وَارْتِيَاخٌ مِنَ الْهَمِّ، وَتَكْرِمَةٌ لِلطَّبَاعِ، وَتَسْكِينٌ لِلصُّدَاعِ^(٢٢٢).

(٢١٨) انظر: ديوان لبيد بن ربيعة ص ١٣٨ وديوان امرئ القيس ص ٨٥.

(٢١٩) ابن حجر، أحمد بن علي (ت ٨٥٢ هـ): الإصابة في تمييز الصحابة، مطبع السعادة، القاهرة ١٣٢٨ هـ، ج ٣ ص ٢٩٧-٢٩٨.

(٢٢٠) ابن اسحق: سيرة النبي، تهذيب ابن هشام ج ١ ص ١٤٤ (سبق ذكره).

(٢٢١) أبو حيان التوحيدى، علي بن محمد (ت ٤١٤ هـ): الإمتاع والمؤانسة، حققه أحمد أمين، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت (د.ت) ج ٢ ص ٢٧.

(٢٢٢) من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - انظر: محاضرات الراغب ص ٢٢٠.

ولا شك أن العرب قد زَيَّنُوا سَعَفَ النخلة أفراحهم وأعيادهم، وحملوها في المهرجانات وأمام المنتصرين في مواكبهم مثلما فعلت الشعوب الأخرى (٢٢٣).

والنخلة شجرة عظيمة؛ قال أحدهم في معرض حديثه عن أهل البصرة (٢٢٤): لهم الرّاسخات في الوَحْل، المَطعمات في المَحْل، المُلَقّحات بالفَحْل، يخرجن أسفاطاً عِظاماً، وأوساطاً ضِحْخاماً، ثم يَتَفَلّقْنَ عن قضبان الفِضّة، منظومة باللؤلؤ. . ثم تصير عسلاً، تَعْلَةً الكبير وَصُمْتَهُ الصغير، وزاد المسافر، وعِصْمَةُ المُقيم، وَتُحْفَةُ مريم بنت عمران.

وربما فَضَّلُوا النخلة على الناقة، لأنها أَقْلُ تَكْلُفَةٍ، وأهون رِعاية، قال أحيحة بن الجلاح يذكر منافع النخيل (٢٢٥):

يَلُومُنِي فِي أَشْتِرَاءِ النَّخِيلِ	لِ قَوْمِي فَكُلُّهُمْ يَغْزِلُ
هِيَ الظِّلُّ فِي الْحَرِّ حَقَّ الظِّلِّ	لِ وَالْمَنْظَرُ الْأَحْسَنُ الْأَجْمَلُ
تَعْشَى أَسَافِلُهَا بِالْجُبُوبِ	وَتَأْتِي حَلُوبَتُهَا مِنْ عُلِّ
وَتُضْبِحُ حَيْثُ يَبِيتُ الرِّعَاءُ	وَأِنْ ضَيَّعُوهَا وَإِنْ أَهْمَلُوهَا
وَلَا يَصِيحُونَ يُبَغُّونَهَا	خِلَالَ الْمَلَأِ كُلُّهُمْ يَسْأَلُ

ومن طبيعة النخلة الصبر على الهجير ومقاومة الحرّ، وصبرها على الظّمأ يشابه صبر الإبل في الصحراء، ومن طبع النخلة أيضاً الجود، فهي تعطي في ظروف قاسية لا تحتملها الأشجار

(٢٢٣) وقد وُظِفَ السَّعَفُ في العمارة الرومانية وتُعرف هذه الزينات بالأكروتيريا Acroteria، وأصلها موجود في مدائن صالح والعلا شمال غرب المملكة السعودية، وقريب منها بترا جنوب شرقي الأردن - بما يدلّ على استعارة الرومان لها بما صاحبها من طقوس وموضوعات أسطورية جنائزية تُشاهد حتى اليوم على واجهات المقابر النبطية، وبعضها يُعنى بالنسر، وكان يرمز إلى المعبود النبطي ذي شرى.

(٢٢٤) اليعموري، يوسف بن أحمد: نور القبس المختصر من المقتبس في أخبار النخلة والأدباء والشعراء، حققه: رودلف زهايم، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٦٤ م، ص ١٧٣، والسجستاني: كتاب النخل، ص ٤٦، وانظر: ابن نايقا البغدادي: كتاب الجمال في تشبيهات القرآن، حققه: مصطفى الجويني، منشأة المعارف، الاسكندرية، ص ١٣٢.

(٢٢٥) أحيحة بن الجلاح: ديوانه، حققه: حسن باجودة، مطبوعات نادي الطائف الأدبي ١٩٧٩ م، ص ٧١، الجُبُوب: التراب.

الأخرى، لذلك عُني بها العرب عناية بالغة وعدّوها رمزاً لهم وشعاراً لبلادهم^(٢٢٦)، وتغنّوا بها في أشعارهم وكرروا ذكرها في مواطن كثيرة من قصائدهم.

وقد تنبّه اللغويون العرب والأدباء إلى أهمية النخلة في الموروث اللغوي العربي، والشعر القديم خاصة، فأفردوا لها صُحُفاً كثيرة تُعنى بشرح ألفاظها وتبيان نعوت سَعَفها وكَرَبها وطولها وحملها وأجناسها وعُذوقها وأحوالها وأسمائها ومنافعها، وقد عصفت يد الدهر بأكثر هذه المؤلفات، وبقي منها عدد قليل يُؤكّد على أهمية هذه الشجرة في نفوسهم، ومن هذه الكتب:

١. كتاب النخلة^(٢٢٧) لأبي عمرو الشيباني، اسحق بن مرار (ت ٢٠٦هـ).
٢. كتاب النبات والشجر^(٢٢٨) لأبي زيد سعيد بن أوس الأنصاري (ت ٢١٥هـ).
٣. كتاب النخل والكُرْم، وكتاب النبات والشجر^(٢٢٩) للأصمعي عبد الملك بن قريب (ت ٢١٦هـ)، حققهما أوغست هفنز، ونشرهما في مجلة المشرق، ونُشرا في بيروت ضمن مجموعة البلغة في شذور اللغة، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٠٧، وبيروت ١٩٠٨م.
٤. كتاب صفة النخل، وكتاب النبات^(٢٣٠) لابن الأعرابي أبي عبد الله، محمد بن زياد (ت ٢٣١هـ).
٥. كتاب الزرع والنخل^(٢٣١)، للباهلي، أحمد بن حاتم (ت ٢٣١هـ).

(٢٢٦) أدرك العرب أهمية النخلة وما ترمز اليه، فدافعوا عنها وخاضوا معارك فكرية مع الشعوبيين في مطلع العصر العباسي، بينما فضّل الفُرس الكُرْم على النخلة، وأزروا بالنخلة وزارعوها مدرّكين أنّها شعار العرب ورمز صحرائهم. انظر: محمد طه الحاجري: مجموع رسائل الجاحظ (رسالة الجد والهزل)، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨٣م ويجمل علم المملكة السعودية رسماً لنخلة يحوطها سيفان... وذكر المؤرخ سترابون أنّ الفُرس قالوا في النخيل شعراً عدّوا فيه نحواً من ثلاثمائة وستين طريقة مختلفة لاستخدامها والانتفاع بها. انظر: شوقي عبدالحكيم: مدخل لدراسة الفولكلور والأساطير، ص ٢٦.

(٢٢٧) ابن النديم، محمد بن إسحق (ت ٣٨٥هـ): الفهرست، مطبعة دانتشكاه، طهران (د.ت) ص ٧٥.

(٢٢٨) ابن النديم: الفهرست، ص ٦٠.

(٢٢٩) ابن النديم: الفهرست، ص ٦١.

(٢٣٠) ابن النديم: الفهرست، ص ٧٦.

(٢٣١) ابن النديم: الفهرست، ص ٦١.

٦. كتاب الزرع والنخل^(٢٣٢)، للجاحظ، عمرو بن بحر (ت ٢٥٥ هـ).
٧. كتاب النخل^(٢٣٣)، لأبي حاتم السجستاني، سهل بن محمد (ت ٢٥٠ هـ أو ٢٥٥ هـ) نشره الاستاذ لافومينا في بلرم بصقلية سنة ١٨٧٣ م، وأعاد تحقيقه: إبراهيم السامرائي، دار اللواء، الرياض ١٩٨٥ م.
٨. كتاب النخل^(٢٣٤) للزبير بن بكار بن عبدالله بن مصعب (ت ٢٥٦ هـ).
٩. كتاب الشجر والنبات^(٢٣٥) لابن السكيت، يعقوب (ت ٢٤٦ هـ).
١٠. كتاب النبات^(٢٣٥) (وفيه فصل عن النخيل) لأبي حنيفة الدينوري (ت ٢٨٢ هـ) نشر بعضه: ب. لورين، مطبعة بريل ليدن ١٩٥٣ م. وشرحه أبو عبدالله محمد بن معمر (٥٢٤ هـ) انظر: نفح الطيب ج^٢ ص ٢٧٠، ولخصه ابن البيطار، انظر: بروكلمان ج^٢ ص ٢٣٢.
١١. كتاب النخل، وهو جزء من كتاب الفلاحة^(٢٣٧) لابن وحشية أحمد بن علي (المتوفى بعد سنة ٢٩١ هـ) وقد نشره: إبراهيم السامرائي في مجلة المورد، العددان: الأول والثاني ١٩٧١ م، ص ٦٥ وما بعدها.
١٢. كتاب الزرع والنبات والنخل وأنواع الشجر^(٢٣٨) للمفضل بن سلمة الضبي البغدادي (ت ٣٠٨ هـ).

- (٢٣٢) ابن النديم، الفهرست، ص ٢١٠.
- (٢٣٣) ابن النديم، الفهرست، ص ٦٤.
- (٢٣٤) ابن النديم، الفهرست ص ١٢٣.
- (٢٣٥) ابن النديم، الفهرست ص ٧٩.
- (٢٣٦) ابن النديم، الفهرست ص ٨٦.
- (٢٣٧) ابن النديم، الفهرست ص ٣٧٢.
- (٢٣٨) ابن النديم، الفهرست ص ٢٧١.

١٣. كتاب الشجر والنبات^(٢٣٩) للمفجع ، محمد بن أحمد بن عبيدالله الكاتب البصري (ت ٣٢٧ هـ).

١٤. كتاب الشجر^(٢٤٠) لابن حبيب ، محمد بن حبيب بن أمية بن عمر (ت ٣٤٥ هـ).

١٥. كتاب النخل ، ضمن كتاب المخصص لابن سيدة ، علي بن إسماعيل الأندلسي (ت ٤٥٨ هـ) وهو مطبوع في المطبعة الأميرية ، بولاق ١٣١٦ هـ ، ج ١١ ص ١٠٢.

١٦. مقالة في النخل ، للبغدادي موفق الدين عبداللطيف (ت ٦٢٩ هـ) ألفها بمصر سنة ٥٩٩ هـ (٢٤١).

وما وصل إلينا من هذه الكتب يغلب عليه التأليف المعجمي ، فكتاب الأصمعي معجمٌ صغير في ألفاظ النخل ، وما يتصل بالنخلة من صفات وأحوال ، وكذلك كتاب ابن سيدة مؤلف في لغة النخل ، يُعَدُّ فيه المصطلحات الفنية والمُفردات الماثورة في الشعر العربي والحياة الزراعية القديمة ، وما يتصل بالنخلة من صفات .

أمَّا كتاب النخل للسجستاني فهو كتابٌ لغويٌ يشتمل على طرائف أدبية ، وأشعار في النخل ، وعادات الجاهليين في زراعة النخل . وفيه جوانب من الفكر الأسطوري في النخل والأدب الشعبي وفوائد في مادة الفلاحة ، ومكانة النخلة في الحياة الاقتصادية للعرب القدامى (٢٤٢).

ومَرَجَ ابن وحشية في كتاب النخل بين العلم التجريبي والفكر الأسطوري وما يتعلق به من سحر وتنجيم ، وينقل من تجارب اليونان خاصة فيما يتعلق بفلاحة النخل ، ويكاد يتخلص من طريقة التأليف اللغوي المعجمي التي سادت في العصور السابقة له .

(٢٣٩) ابن النديم ، الفهرست ص ٩١.

(٢٤٠) ابن النديم ، الفهرست ص ١١٩.

(٢٤١) توفيق الفكيكي : شجرة العذراء ، مطبعة الإرشاد ، بغداد (د.ت) ص ٢١٩.

(٢٤٢) انظر مقدمة إبراهيم السامرائي لكتاب النخل ، ص ١٤ وما بعدها.

الخاتمة

حاولتُ في هذا البحث الكشف عن أهمية النخلة في الشعر الجاهلي، واعتمدت المنهج الأسطوري وسيلة إلى المعرفة، وعرضت لقيمة النخلة في التراث الإنساني عامة، ووجدت أنَّ أكثر الشعوب القديمة كانت تعتقد أنَّ الشجرة تملك روحاً خاصة وشخصية مستقلة، وإرادة فاعلة، وأنها أكثر الشجر إنجاباً وتكاثراً لذا جعلوها رمزاً للإخصاب الجنسي والتكاثر، وعدوها شجرة الفردوس وشجرة الحياة، ورمزاً للآلهة. واتَّخذت النخلة المعنى نفسه في التراث العربي وساد الاعتقاد بأنها نباتية الجسم، حيوانية الروح. وعرضت لصورة النخلة في الشعر الجاهلي في رحلة الطعائن وجنات النخيل، ووصف الناقة، والفرس، والحرب، ثم النخلة والإنسان العربي. ووجدت أنَّ الشعر جاء مرآة للموروث الإنساني الأسطوري إذ ارتبطت النخلة بالمرأة الحسنة المخصبة، وكانت رمزاً للأنوثة والحمل والإخصاب الجنسي وتجدد الحياة ورمزت للأمن والاستقرار في الوطن، والخير المطلق، والهداية، والانتصار الشامخ، والمنعة، والبقاء، والثراء، والشرف.